زائر منتصف الليل

خالد أمين

رواية

Telegram:@mbooks90

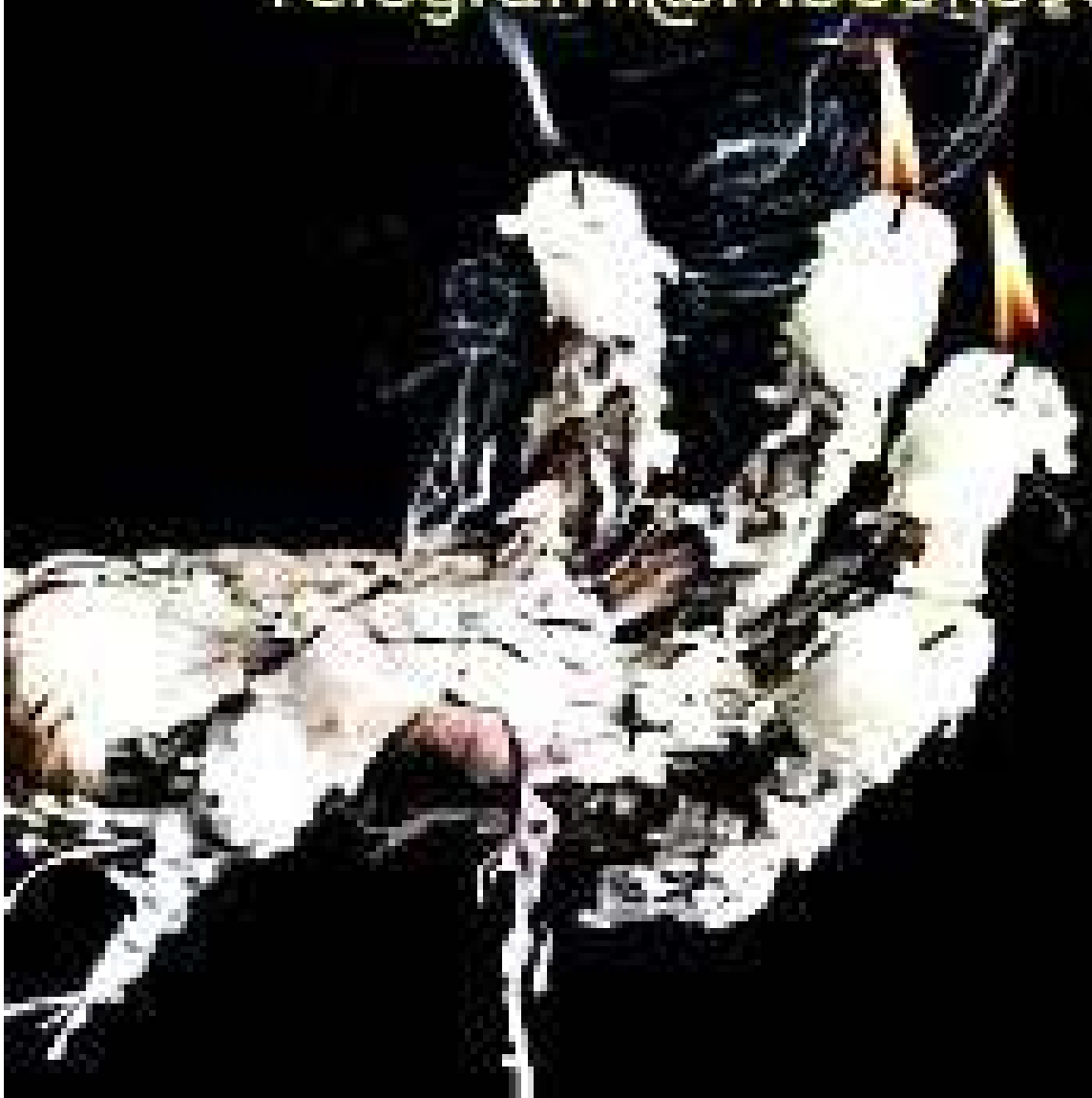

دار دون

«نحن لم نكف عن اللعب لأننا كبرنا،

لقد كبرنا لأننا توقفنا عن اللعب.»

بيرنارد شو

«لا تحاول أن تغمض عينيك عندما تخاف،

هناك سببٌ لخوفك.. أنت فقط لن تراه

يقترب منك وأنت مُغمَض العينين.»

مجهول

تمهيد

جزء من مذكرات قدري:

تلك الأحداث الكابوسية التي وقعَت ما بين الشهر التاسع من عام ٢٠٢٠ والشهر الثاني العشر من نفس العام، قد بدأت في الحقيقة منذ دهورٍ مضت، لقد بدأت في عام ١٩٨٨ على وجه الدقة، كنا أطفالًا حينذاكٍ، نتطلع للمستقبل.. وتنقبض معدتنا في مزيجٍ من الحماس والخوف عندما نفكر فيما قد يجلبه لنا الغد.. كنا في مدرسة مشتركة، وهذا يعني كمًّا زائدًا من التوتر والخجل بالنسبة لطفلين منطويين مثلنا عند التعامل مع الفتيات، لكننا كنا ننسى.. ننسى كل تلك المواقف المحرجة عندما نجلس ونلعب «الأتاري» أو نركب دراجاتنا ونمرح في شوارع محافظتنا الصغيرة.. نتوقف مبهوري الأنفاس أمام السيرك المتنقل الذي قرَّر زيارة محافظتنا، ونترقب لحظة افتتاح متحف الشمع.. نتخيل ونحن نختلس الشرائط من نادي الفيديو اختلاسًا، ونشاهد فيلم «تشاكي» في فزعٍ ومرحٍ، لقد كنا أطفالًا، بلا شبكة إليكترونية ولا هواتف محمولة.. لا نمتلك سوى خيالنا.. ثم حلَّ الظلام على مدينتنا.. وبدأ الكابوس.. تلك هي حكايتنا.. اسمي هو قَدري.. وصديقي هو أكرم.. لا أعلم من أين أبدأ الحكاية.. أعتقد أن اللحظة المناسبة للبدء هي عام ٢٠٢٠، يوم الأربعاء، الثاني من شهر سبتمبر..

عندما استيقظ أكرم ليجد أن زوجته وابنه قد اختفيا..

الفصل الأول

عندما فتح أكرم عينيه أدرك على الفور أن هناك شيئًا ما خاطئًا قد حدثَ.. لم يكن هذا مجرد حدس فحسب، باب الغرفة المفتوح على مصراعيه.. الستارة الممزقة.. والتنميلة في يده، أخبروه أن شيئًا ما سيئًا قد حدثَ وهو نائم.. حاول الفتى أن يعتدل قبل أن يتأفف، ذلك الطَّعم المرير في فمه.. بدا لأكرم أن عقله يحاول أن يخبره بشيءٍ ما، لكن ولسببٍ ما تحوَّل عقله لرجلٍ أخرس أو مُكمَّم الفم يصيح ويشير بيديه فقط بانفعال وجنون دون أي مقدرة على الكلام، يحاول أكرم أن يتبين ما يحاول عقله - باستماتة - تنبيهه له، دوَّار.. تنميلة.. طعم مرير في فمك.. رؤية زائغة.. نوم عميق بلا أحلام مرَّ سريعًا كهمسة أحبك خجولة من فتاة للمرة الأولى.. هنا يزيح عقله الكمامة من على فمه ويصيح بصوت هادرٍ: أنت كنتَ مخدرًا يا رجل!

يتصلب جسد أكرم، وتتسع عيناه.. لقد خدَّره أحدٌ وهو نائم.. شعر أكرم بالعصارة الحامضة تتجمع في معدته، هذا الانقباض اللعين الناجم عن توتُّرٍ هائلٍ.. ذلك الشعور القديم الذي لم ينتَبه منذ فترة الطفولة.. يفتح أكرم فمه، سينادي على زوجته الآن.. ولو لم يأتِه ردٌّ سيصيبه الجنون.. سوف أناديك ولسوف تجيبي.. أرجوكِ.. بصوت مبحوح ومتحشرج يهمس أكرم: م.. ماجي...

قبل أن يهتف: ماجي.. ماجي.. مازن..

يسود الصمت، لا مجيب.. ويشعر أكرم أن الستارة الممزقة، والباب الموارب ينظران له باكيين.. يهتف: ماجي.

ثم يهب واقفًا، يعتنفه الدوار فيسقط أرضًا وتُلوَى قدمه.. يئنّ ألمًا قبل أن يقف مرة ويعرج للصالة.. يتلفت حوله.. يداه ترتشعان.. صدره يعلو ويهبط.. يهتف: يا إلهي.

لقد تحولت شقته لأرض الخراب، المنضدة منقلبة، زجاج النيش في كل صوب.. التلفاز مُهشَّم.. يبحث أكرم.. يبحث في كل صوب.. يحاول الاتصال بماجي.. يوقظ الجيران.. يخرج للشارع.. حارس العقار يبسمل ويحوقل.. نظرات الجيران الممتلئة بمزيجٍ متناقض من النقد والتعاطف والسخرية والصامتة وبهجة: الحمد لله أننا لسنا مكانك وشكرًا على الإثارة المؤقتة التي أعطيتها لحياتنا الرتيبة.. نظراتهم تلك تصيبه بالجنون..

تصل الشرطة، يصل ذووه.. حماته تبكي.. صديقة ماجي مشدوهة عاجزة عن الكلام.. يصل قَدري؛ صديق أكرم الصدوق..

يمر اليوم ببطءٍ.. وتنهش تفاصيله روح أكرم.. كأن تفاصيل هذا اليوم قد اختطفت أكرم وقيدته ومالت لتهمس في أذنه بخبثٍ: سوف تتذكرني للأبد.. أنت مِلكي الآن..

ينظر قدري لصورة ماجي ومازن ابن الأعوام الثلاثة.. قبل أن يتحدث مع والد أكرم.. والدة أكرم تنتحب هي الأخرى..

يريد أكرم أن يصيح بهم جميعًا بالانصراف، يصيح كالمجنون: لماذا تبكون بالله عليكم؟ لماذا تفترضون أن سوءًا قد حدثَ لهما؟

لكنه يعلم لماذا؟.. لأنَّ مُقتَحِمًا ليليًا قد خدره واختطف زوجته وابنه بعدما هشم شقته وخرج بهما بمعجزة ما من البناية دون أن يلاحظه أحد..

يتحدث معه رائد الشرطة عن انقضاء أول ٢٤ ساعة بعد الاختطاف ويعطيه أمثلة لقضايا مماثلة، ويخبره ألا يفقد الأمل، يحذره أنَّ بعض البرامج الإعلامية ستطلب منه الظهور في سبيل مقابل مادي للتحدث عن الفاجعة وينصحه ألا يفعل هذا؛ لأن مثل تلك الأفعال قد تستفز المختطف، يخبره أن رواد مواقع الاتصال الاجتماعي سيكتبون عن الحادثة وينشرونها على صفحاتهم وسرعان ما ستتغير الحكاية تمامًا، وعليه ألا يأبه بهذا، يمتعض أكرم من مجرد تخيُّل تلك الأفكار.. إعلام.. لقاءات عن عائلته.. يظهر في الإعلام أمام مذيعة تتظاهر بالأسى ولسوف تنسى بشأنه بعد رحيله بثوانٍ ليتحدث عن أهم ما يملك للعامة، يواصل الرائد حديثه، لكن أكرم لا يسمعه حقًّا.. هو رجل الغاب الآن وقد اقتحم أحدهم كهفه، لم يكن هناك داعٍ للقناع الحضاري.. أكرم لم يكن صلبًا أو حار الدماء، لكنَّ هناك نوعًا آخر من الغضب.. نوعًا نادرًا لا يأتي للجميع ونادرًا ما يستمر.. لكنه اعتلى أكرم وقرر أنه قد جاء ليبقى.. هذا الشعور جعل أكرم يدرك جيدًا أنه سوف يقتل أيًّا كان مَن الذي أخذ عائلته..

يمرُّ اليوم الثاني.. والثالث.. يشعر أكرم أن عقله قد تلف من محاولة تخيُّل ما الذي يحدث لعائلته في تلك اللحظة..

في اليوم الرابع تشجَّع قدري.. واقترب من صديقه ونظر له طويلًا، قبل أن يختلي به ويقول: «أكرم»..

- ماذا؟

- أعتقد أن كلينا نعرف مَن الذي أخذهم..

ينظر له أكرم صامتًا.. يتنهد قدري قبل أن يقول محاولًا التغلب على ما بدا لأكرم أنه خوف: البعبع قد أخذهما.. لقد عاد يا أكرم..

ينظر أكرم لقدري في صمتٍ، صديقه الطبيب البالغ من العمر اثنين وأربعين عامًا يقول لفظ «البعبع» كأنه طفلٌ.. ولكنه يعلم لماذا، ويعلم أن كليهما لن يتخلصا أبدًا من تلك الكلمة، لقد كان يتوقع جيدًا أن صديقه سيقول له ما كان يخشى هو نفسه الاعتراف به..

وبينما هو يقف ناظرًا لقدري، بدأ أكرم في التذكر.. تذكَّر أول مرة قابل فيها البعبع.. وربما لمدى هَوْل تلك الذكرى.. بدأ أيضًا في استرجاع لحظاته الأولى مع ماجي..

الفصل الثاني

رآها في المتحف للمرة الأولى..كانت كالأمطار وهو رجلٌ لم يرَ السماء مبللة من قبل.. كانت الأنثى وهو الرجل البدائي يخرج من مخبئه للمرة الأولى.. كانت كفيلة بجَغلِ الشعوب تتوقف عن حروبها، وربما قادرة على نشر السلام العالمي.. تمتم أكرم لنفسه: لو سمعَ أحدٌ أفكاري تلك لاتهمني بالابتذال والمبالغة الشعرية، ولكن تبًا تلك الفتاة رائعة..!

كان يقف جوار لوحة «دورية الليل» لـ «رامبرانت» ويُصغِي نصف منتبهًا لحديث قدري، صديق طفولته الذي التحق بكلية الطب كما أراد له والداه، وامتلأ جسده وفقدَ شعره.. لا يعلم إن كان والداه أرادا له هذا أم لا.. تزوج قدري وأنجب طفلين.. فقدَ حماسة الشباب وشغف المغامرة وتحوَّل لآلة لجمع المال فحسب.. لم يحدث هذا لأكرم.. لم يجمع المال ولم يتزوج ولم ينجب.. لم يلتحق بكلية الطب.. ولم يكن مصدر فخر لأيٍّ من والديه.. كان قدري يتحدث بلا توقف عندما رأى أكرم الفتاة الشقراء قصيرة الشعر شديدة النحافة تسير بين اللوحات..

يلوِّح قدري بيده وهو يقول: أتفهَم مقصدي؟.. أي وغدٍ يرفض زيجة كتلك لابنته؟.. الرجل يمتلك عيادة عبارة عن صنبور للمال.. ولكن هذا الأخرق المتعالي يرفضه، وطبعًا يلومني في النهاية لأني أنا من رشحت له الأمر برمته.. المال هو المحرِّك الوحيد لكل شيء الآن.. لم يعد هناك قيمة لمفاهيم مثل السُلطة والنفوذ والمراتب الاجتماعية.. قوة الشخصية احتضرت منذ زمن والكبرياء أقاموا جنازتها منذ دهور.. المال هو كل شيء يا رجل.. يكسبك

الاحترام وكل شيء، أعني فكّر بالأمر.. لماذا تتحارب الشعوب؟ ما هو غاية الاقتصاد؟.. لماذا نرى كل تلك الإعلانات من حولنا؟.. السياسة.. الإرهاب.. الانتخابات.. التعليم.. كل هذا من أجل المال.. نحن نحاول إيجاد منطقٍ ما لحياتنا، لسعينا وراء المادة.. فنخلق أوهامًا مثل المبادئ.. ولكن في نهاية المطاف المال هو كل شيء..

ينظر أكرم بطرف عينه لقدري وهو يتابع الشقراء بعينه.. يا إلهي لشدة ما يريد استبدالها بقدري في تلك اللحظة، بدا له الأخير مضحكًا وهو يتحدث بانفعالٍ ويضيف: أنا محق وأنت تعلم هذا، على أي حالٍ لقد ذكّرتني تلك اللوحة لسببٍ ما بهذا الموقف المستفز وأردتُ قصّه عليك..

يومئ أكرم برأسه وينظر لقدري، ما الذي حدث لصديقه المقرب؟.. كيف تحوّل لتلك الشخصية؟.. لقد كانا يحلمان وهما في المدرسة.. يجلسان في الفناء، في الركن البعيد هربًا من المتنمرين.. ويحلمان سويًا بمستقبل ممتلئ بالمغامرة هناك في تلك البلدة الصغيرة والنائية التي لن يندهش أحدٌ لو اختفت من على الخارطة.. يتذكّر أكرم ذات يوم.. بداية معرفته بقدري.. يجلس أكرم في الفصل وهو يحاول ألا يبدو خجولًا، يحاول أن يكون منتميًا لكنه يعلم أن هذا لن يحدث أبدًا.. أول أيام الدراسة تلك.. القلق والرهبة.. الفتيات يجلسن ككائنات غامضة جواره.. الفتيان يتظاهرون بالصلابة واللامبالاة.. بينما هو - الفتى النحيل ذو العوينات - يدخل الفصل وهو يشعر بغصة في حلقه، يبحث بسرعة بعينيه عن كرسي بعيد في آخر الفصل ليجلس ويختبئ منهم، لكن لا كراسي شاغرة هناك، هناك كرسي بغيض ينظر له بخبثٍ في المنتصف.. المدرس الشاب الملول يقول وهو يلوك العلكة

ويتمايل بجسده: ماذا تنتظر؟.. اجلس.

يسير أكرم ويجلس على الكرسي وهو يشعر بنظراتٍ زملائه الساخرة تمزقه تمزيقًا.. فتاة تنظر له ضاحكة وتغمز لزميلتها.. تنظر له زميلتها بلا مبالاة ولسان حالها يقول: أخرق جديد ينضم للفصل..

لقد تم نقله للفصل الجديد وهذا بمثابة الانتقال لعالم آخر، رهبة الوجوه الجديدة وليلة الأرق التي قضاها الطفل يفكر فيما سيحمله اليوم التالي، لم يكن دومًا أكرم خجولًا ووحيدًا في المدرسة، في الأعوام السابقة كان يرأس «شِلة»، ونظام «الشِلل» المدرسية أشبه بعصابات المافيا، لكل عصابه منهم قائد، يتحدون مع بعضهم البعض في معارك تشمل التشابك بالأيدي ورمي الأحجار والمقالب، وأحيانًا السباقات، ثم ظهرت عصابة جديدة تحدّت عصابته، لا يعلم لماذا لكنه يتذكر وقوفه أمام أفراد «شلته» ويخبرهم مقلّدًا أحد الأفلام أنه لن يستطيع قيادتهم بعد الآن، أنه وقت حل «الشلة» يا رفاق.. ثم سار وحيدًا رغم توسلاتهم شاعرًا بمزيج طفولي من الفخر والرثاء للنفس، بعدها أدرك أن الفيلم كان أخرق ولم يكن عليه تقليد البطل، كان يتوقع عودته في النهاية للبطش بـ «الشلة» الأخرى وتجمُّع رفاقه من حوله، إلا أن هذا لم يحدث، وانضموا هُم لفرق أخرى.. وأصبح هو وحيدًا، ولأن شخصيات الأطفال تتبدل بسرعة خارقة، وجد نفسه منطويًا خجولًا فجأة دافعًا ثمن حماقته..

Telegram:@mbooks90

يبتلع أكرم ريقه وهو جالسٌ في الفصل، يتحدث مدرس اللغة العربية ويتحدث.. ويمر الوقت، يدخل بعدها مدرس اللغة الأجنبية، النقيض من سالفه، خشن المنظر وأجش الصوت.. شديد البنيان فارع القامة.. هنا -لسبب

ما لن يعلمه أكرم أبدًا-، يطلب المدرس من الفتى أن يقف ويعرّف نفسه لباقي الفصل.. يتهاوى قلب أكرم بين ضلوعه ليستقر في معدته.. بعد ساعات من التوتر ينهار قلب الفتى النحيل أخيرًا.. يقف أكرم بساقين مترنحتين وهو يدرك تمامًا أن المدرس يسخر منه، هذا الرجل يحترم الفتية شديدي الصلابة في الفصل ولا يحب المتخاذلين من أمثال أكرم.. إنه قانون داروين يا سادة؛ البقاء للأصلح في التظاهر بالقوة.. يصل أكرم لمقدمة الفصل ويبتلع ريقه.. ثم يستدير تجاههم وهو يتوقع المهزلة القادمة.. نظرات كل الجالسين مركزة عليه.. وجوههم ضاحكة وممتلئة بالسخرية.. سوف يشيرون إليك ويضحكون.. هنا يقف فتى ممتلئ قليلًا، مبتهج وذو وجه ضاحك.. يقول للمدرس إنه يريد أن يعرّف نفسه.. يقولها بطريقة صعيدية فيضحك الجميع بلا توقف.. يستشيط المدرس غضبًا وينهرهم جميعًا ويأمر أكرم أن يعود لمقعده..

في وقت الفسحة المدرسية يقابل أكرم الفتى، ينظر إليه قليلًا قبل أن يقول: شكرًا.

يقولها مقلدًا سعيد صالح في فيلم سلام يا صاحبي، ينظر له الفتى.. ويتخيله أكرم كعادل إمام في تلك اللحظة.. ويتحدث الفتى.. يتحدث كثيرًا دون توقُّف في حماسة مُبالَغ بها..

- لا شُكرَ على واجب.. الوغد كان يسخر منك.. دَغكَ منه.. دَغكَ منهم جميعًا.. اسمي قدري بالمناسبة و..

وكانت تلك بداية الصداقة، وها هما ذا جالسان في يومٍ آخر يتناولان الشطائر ويخططان ليومهما بعد انتهاء الدراسة، يقول أكرم، ولا ينسى أن

يجول بعينيه بحثًا عن ظهور المتنمرين وهو جالس في الركن البعيد: «لا أعلم لماذا لا تصدقني؟»

- لأن لا أحد ببساطة يستطيع «تقفيل» لعبة علاء الدين، جعفر دومًا ينتصر في المرحلة الأخيرة

- كف عن هرائك هذا.. كيف لا تصدقني؟

- آه معذرة.. وهل صدقتني أنت عندما ظللت أقسم لك إني سهرت للصباح ألعب الـ «كابتن ماجد» قبل أن يكف «الأتاري» اللعين عن العمل لانقطاع النور بعد وصولي للمرحلة الأخيرة.

يضحك أكرم ملء شدقيه فيحمرّ وجه قدري غضبًا ويدفعه ليسقط وهو يهتف: لقد حدث هذا حقًّا.

يواصل أكرم الضحك وهو يتمرغ بتراب الفناء قبل أن يعتدل واقفًا، يمد قدري يده له ويساعده على الوقوف..

- نحن بحاجة لمشاهده فيلم.. لا تنسَ أن اليوم هو الخميس.

- لن أشاهد نادي السينما مرة أخرى، أفلامهم مملة للغاية.. تخيل لو أتى يوم نستطيع فيه اختيار الأفلام التي سنشاهدها.. نبحث ونجد فيلمًا لنشاهده.

- آه، لهذا يوجد نوادي الفيديو يا أخرق.

- كلا.. أتحدث عن كل الأفلام وليس المجموعة المحدودة في نوادي الفيديو فحسب..

- أنت تحلم إذًا.. ألم تقرأ تلك النشرة الإخبارية في الإذاعة.. لقد وصلنا لقمة التطور التكنولوجي في عامنا هذا.

- إمم.. نعم أنت مُحِق.. «الأتاري» خير دليل على كلامك.. نحن محظوظون حقًّا لأننا في الثمانينيات.. تخيل لو كنا في الستينيات.

- هاها، كنت سأقتل نفسي.

- حسنًا، لنذهب لنادي الفيديو ونشاهد فيلم تشاكي.

يصيح الاثنان في حماسة للفكرة، وصيحتهما تلك هي التي كشفت مخبأهما.. أمامهما تقف «الشلة إياها» من الفتيان المعتدين بأنفسهم.. يلوكون العلكة ويقفون في لا مبالاة يتبادلون السباب.. المتنمرون.. هؤلاء الذين يفسدون حياتك من أجل المتعة.. سيضربونك.. ويسببون لك مختلف أنواع الإهانات.. سيختطفون مقتنياتك ويسخرون منك.. كل هذا من أجل متعتهم الخاصة، لو كان أكرم أو قدري أكبر سنًّا لكانا قد فَهِما معنى كلمة سادية.. لكن في عمرهما هذا بدت لهما كلمة «عبث» هي الأقرب لوصف الموقف..

يبدأ الأمر بسبه، بعدها يتلقى أكرم لكمة تطيح بأنفه فيسقط أرضًا ويبحث عن عويناته على التراب.. يقاومهم قدري وهم يضحكون..

المتنمرون.. لسببٍ ما كلما أتت والدته أو والده - لو كانا ليسا منشغلين بتباذل السباب في المنزل أو الشجار - للشكوى أن ابنهما يعود إليهما وقد ضربه أحدهم، لا يحدث شيء بعدها.. فيما بعد فهمَ أكرم أن كل إدارة مدرسية تسمح بقليل من التنمر لأن تلك هي الطبيعة البشرية كما لو كان هذا واجبهم لإعداد الطلاب لحياة ما بعد التخرج..

يجلس بعدها الصديقان سويًا، بعد انتهاء اليوم بمشاحناته، وينظر للقدري للسماء قبل أن يقول: يومًا ما.. سنكون مثل ابن بطوطة وروبنسن كروزو وكل هؤلاء الملاعين الذين يعلمونا شؤون حياتهم لأنهم فعلوا أشياء مجنونة وغير تقليدية.. لأنهم مختلفون.

ثم ينظر قدري لأكرم، ولا يفوت على الأخير أن صديقه يداري دموعه.. هجوم المتنمرين دومًا يؤثر فيه.. شعورهم بالضعف وقلة الحيلة هذا، لكن الأتاري والأفلام قادران على مساعدتهما في النسيان.. يشد أكرم على يد قدري.. ويقول الأخير: عدني أننا سنكون دومًا مختلفين..

- أعِدُك.

كان هذا بالأخص يومًا لا يُنسَى، هذا يوم ذهاب الاثنين للنادي وركوبهما الدراجات للمرة الأولى بعد أسابيع من التدريب.. شعر أكرم أنه يمتلك العالم كله وهو يدور بالعجلات.. يرفع يديه للأعلى ويضحك.. الهواء يرتطم بوجهه.. يسابق قدري.. يلحق به الأخير.. ويصيح أكرم: سنكون دومًا مختلفين.

يسقط من على العجلة بعدما يفشل في الفرملة ويتمرغ وجهه في الطين لكنه يواصل الضحك، يوقف قدري دراجته ويستلقي جواره.. وتتعالى ضحكات الاثنين..

يهز أكرم رأسه باسمًا وهو يقف جوار لوحة لامبرانت، قدري ينظر إليه قبل أن يقول شيئًا ما لا يتبينه أكرم.

- ها؟

- قلت لك أتمنى أن أعرف فيما تشرد.

- أتتذكر أول مرة أمسكت بها بيد «الأتاري» ونحن صغار.. أتذكُر هذا الشعور؟

ينظر إليه قدري بوجهٍ بلا تعبير لوهلة وهو يفكر، قبل أن يبتهج ويقول بصوت طفولي: بالطبع.

يشير أكرم للشقراء ويضيف: ينتابني نفس الشعور الآن..

يلتفت قدري وينظر للفتاة قبل أن ينظر لأكرم ضاحكًا ويهمس: في أحلامك..

- نحن نحلم لأننا نعيش.

- كُفّ عن هرائك هذا.. لقد أتيت معك المتحف لأنها وظيفتك وأنا أمتلك بعضَ وقت الفراغ ليس إلا، أنت لست عبد الحليم ولن تقابل محبوبة الجماهير في لوكاندة المفاجآت، بالله عليك.

- أنت تتحدث عن الفيلم الخطأ، إسماعيل يس كان اللوكاندة.. عبد الحليم كان في...

- آه، يا إلهي.

يواصل الاثنان حديثهما، وأكرم ينظر للفتاة.. ترتدي فستانًا أبيض قصيرًا، هناك وشم على ظهرها.. هي من نوع الفتيات الذي لن يستطيع أبدًا التحدث معه.. ولكن لسببٍ ما يذهب أكرم للتحدث مع الفتاة.. ربما هي ذكرى المتنمرين.. أو شعوره بالتوتر.. أو السأم.. أو رغبة في الهروب من حديث

قدري الممل.. أو لأنها أكثر فتيات الأرض جاذبية.. لا يعلم السبب.. لكن ترك قدري المندهش وذهبَ ليجد نفسه واقفًا أمامها، وتنظر هي إليه بعينين متسائلتين..

عينان زرقاوان تسلبانك أسرار روحك كلها..

وكعادته لم يجد أكرم أن هذا وصف مبالغ عندما يتعلق الأمر بماجي.

***

يتنهد أكرم وهو ينظر لقدري الذي يكرر: البعبع قد عاد يا رجل.. وهو من أخذ ماجي.

***

الفصل الثالث

يواصل أكرم التذكر..

يقف أمام ماجي.. وقدري يتظاهر بالنظر للوحات.. تنظر الفتاة للكاميرا المتدلية من رقبة أكرم قبل أن تتفحصه بسرواله الأسود وقميصه الأبيض.. جسده النحيف وقامته الفارهة.. لحيته الطويلة وشعره الخفيف.. والعوينات المستقرة فوق أنفه.. كان يمتلك فكًا عريضًا وأنفًا مدببًا.. ودرجة لا بأس بها من التوتر.. هذا ما جال بخاطرها قبل أن تتجاهله وتواصل النظر للوحات.. إما هو مصور خاص يوم الافتتاح يريد تصوير الشقراء ذات الوشم، أو لزج آخر يريد التعارف.. هي تكره الغرباء.. وقد حصلت على نصيبها من المضايقات والتحرش لتتحول لقطة متأهبة لخدش كل من يقترب منها.. الشيء الوحيد الذي جعلها مهتمة قليلًا بمعرفة ما سيقوله الغريب هو توتره.. بدا لها كمراهق رغم ثلاثينياته الواضحة.. تنحنح أكرم قبل أن يقول: آه معذرة.. لكني...

ثم صمت بعدها.. صمتَ تمامًا.. وظلَّ ينظر إليها في بلاهة.. لوهلة أرادت ماجي أن تبتسم.. ثم شعرت بالقليل من التعاطف تجاهه قبل أن تتذكر كل مضايقات الشارع ومحاولات زملائها في العمل للتقرب منها ليتلاشى القلق ويحل محله الشك تجاه الرجل الغريب الواقف أمامها..

أكرم كان يستشيط غضبًا وهو واقف أمامها، يصيح في صمت داخل عقله ويهتف: قل شيئًا بالله عليك يا ملك الحمقى جميعًا..

استمر الأمر لثوانٍ، وكادت هي أن تستدير راحلة، وتزايَد الأدرينالين في

جسد أكرم قبل أن يسمع صوت قدري يقول: آه معذرة.. صديقي كان يريد التقاط صورة لكِ فحسب يا فنانة، هذا من ضمن فعاليات اليوم..

- آه، نعم صورة.

يردد أكرم ببطءٍ.. تنقل ماجي نظرها بينهما، وتقاوم الابتسامة التي تلح في الارتسام على شفتيها..

قبل أن تهز كتفيها وتقول ببرودٍ: حسنًا.

يتظاهر أكرم بالاحترافية وهو يلتقط عدة صور ويجد أن قدري قد انسلَّ بعيدًا عنهم..

فور أن ينتهي أكرم يقول لها: شكرًا.

- العفو.

- آه تبًا، حسنًا انتظري.. أنا لم آتِ لالتقاط صورتك.. أنا أردت فقط أن أقول لك إنك أروع ما رأيت في حياتي بأكملها.. أنت كملمس ذراع «الأتاري» للمرة الأولى.. أنتِ كلحظة التجوُّل وحيدة في نادي الفيديو وسط الشرائط.. أو لحظة اعتلاء الدراجة ليلًا..

يقول أكرم كل هذا في رأسه فحسب وهو ينظر إليها ترحل مبتعدة.. قبل أن يسير تجاهها..

- آه، أستاذة..

- نعم..

- هذه هي بطاقة العمل الخاصة بي.. عليها رقمي.. الواتساب أقصد.. أرسلي

لي شيئًا وسوف أرد عليكِ بالرسائل.

- شكرًا.

رحلت الفتاة، وعاد بعدها أكرم لقدري مطأطأ الرأس قبل أن يقول: شكرًا.

- لا شكر على واجب.. كنت بحاجة للمساعدة.

- كيف عرفت أنها رسامة؟

- أين قدراتك الاستنتاجية يا سيد كونان.. فتاة قصيرة الشعر، شقراء، تضع وشم.. تسير وحيدة دون رفيق.. وتسير بثقة.. هي لا تنظر للوحات عامة بل للوحات القسم السيريالي فحسب.. بالطبع هي رسامة وقد جاءت لتطمئن على مبيعاتها قبل أن تجد أنها لم تبع شيئًا وأن كونك رسامًا في مصر لهو أكثر الأمور بؤسًا.. تسير هي واجمة.. لو كان معها رفيق لشككت أنها زائرة.. لكن كونها وحيدة قال لي ببساطة أنها شخصية تحب العناد.. لهذا ارتدت هذا الفستان القصير وأظهرت الوشم وقررت تحدي الجميع بمجيئها للمتحف.. والأهم من هذا تحدي نفسها..

تنهد أكرم.. هو يعلم أن قدري شديد الذكاء ببساطة، ويمتلك قدرات تحليلية مبهرة.. ولطالما تنافس الاثنان في لعبة التحليل والاستنتاج.. بحث أكرم بعينيه عن الفتاة..

- لا تَكُنْ بائس.. أنت أعطيتها رقمك أليس كذلك؟.. لقد رأيتك.

- آه هه...

- لو كان الأمر مُقدَّرًا له أن يحدث ستتصل بك يا صديقي المصور العازب..

والآن أعتقد أنه قد حان الوقت للعودة إلى العمل.. أقصد أني سوف أعود للمستشفى.. كنت أتمنى أن أقول لك أن تعود للجريدة.. كما كنا نرى دومًا في الأفلام ونحن صبية.. المصوِّر يعمل في الجريدة، إلا أن صديقي يعمل كمصور حُرّ يا سادة، ويصوِّر أفراح وكل شيء، وليس الطبيعة والفن فحسب، لكنه يفعل هذا من أجل المال فقط، فلا تحكموا على الفنان المناضل.. ولا تنسوا أنه يعمل بدوام كامل كمدرب تصوير في مكان فاخر يعطي مثل تلك الورش..

يضحك أكرم وهو ينظر لصديقه محدِّثًا جمهورًا وهميًا بطريقة مسرحية.. وينصرف قدري بعدها..

يظل أكرم في المتحف لساعة أخرى يلتقط الصور.. لوحات جيدة، أخرى سيئة.. لوحات لن يفهمها أحدٌ أبدًا، ولوحات ستجعل الجميع يبتسمون.. هو يحب الفن البسيط الذي يجعل الجميع يبتسمون ولا يحب التحذلق والسيريالية.. آه السيريالية، الشقراء كانت في القسم السيريالي.. يذهب هناك ويلتقط عدة صور وهو يأمُل بمعجزة أن يجد صورتها على إحدى اللوحات وجوارها رقم هاتفها إلا أن الحياة لم تكن بهذا الكرم أبدًا، يواصل التصوير.. رجلٌ متعالٍ يسير متبخترًا كالطاووس جوار زوجته ذات الوجه الواجم والحزين وابنه، هذا رجل يمتلك الكثير من المال ولهذا يتباهى ومن الواضح أن مقدرته في إسعاد عائلته تتضاءل عكسيًا مع درجة حبه لنفسه.. هناك عاشقان شابان، الفتى يضع يده على حبيبته خلسة كلما اختلى بها.. يبتسم أكرم وهو يلتقط صورة لهما أمام إحدى اللوحات.. ثم يرحل من المكان بعدما يخبر العميل أنه قد انتهى..

***

عام ١٩٨٨

- أنت وغدٌ

صاح أكرم بالعبارة في انفعالٍ وهو يبدو كالثور الهائج قبل أن ينقضّ على الفتى فارع القامة الذي ظلَّ يتحرش ويتنمر بالفتاة.. لقد كان يسير مع قدري في النادي، بينما أهاليهما يجلسون على المناضد يتبادلون الحديث بما ينص عليه العرف والتقاليد، يبدو لأكرم وكأن الكبار شخصيات كاريكتيرية رسمها أحدهم ليضعها في الخلفية في تلك اللحظة فحسب، وها هما ذا بالقرب من منطقة الألعاب.. طبعًا يشعر أكرم وقَذري بأنهما قد كبرا بما يكفي ليسيرا في خيلاء وسط المتأرجحين وينظرا لهم بسخرية قبل أن ينسلا من السور في سرعة وحماسة ليذهبا نحو منقطة الإستاد حيث يسير أصحاب الدراجات والمهرولون.. كونهما في المرحلة الأخيرة من الابتدائية جعلهما يشعران بقمة النضج والتكبر.. ذات مرة حاول إقناع قدري أن يقفز معه من فوق السور ليستكشفا منطقة الإستاد لكنَّ الأخير فشلَ بسبب جسده الممتلئ، وظلَّ أكرم يضحك حتى دمعت عيناه وهو يرى صديقه مُعلّقًا فوق السور، إلى أن أتى حارس الأمن ليبدأ حملة توبيخ تُكملها والدته مع العهد المعتاد: لن ترى أكرم هذا مرة أخرى.

وسريعًا ما تحل هي هذا الوعيد لأنها تعلم جيدًا أن ابنها بحاجة لأصدقاء، أحيانًا هي تشعر أن قدري مختلف عن كل أبناء جيله وتحمد الله أنه أخيرًا قد وجد صديقًا، يعود الاثنان لبيوتهما ويسهر أكرم وهو يفكر في وسيلة لعبور السور قبل أن تنتابه أخيرًا، تتوهج عيناه ويظل نشطًا كالقردة لحين

مقابلة قدري في اليوم التالي، يهمس له بخبث وحرص -مقلِّدًا نادية الجندي في أفلام الجاسوسية- وهما واقفان في طابور الصباح: لقد وجدتُ وسيلة للعبور..

وبعد عدة محاولات من الإقناع ينسل معه قدري أخيرًا من الفتحة إياها أسفل السور.. تلك المرة يعلق أكرم ويجرح ذقنه وهو نائمٌ على ظهره زاحفًا للأمام.. يضحك قدري في تشفٍّ..

- عندما تنتهي من هزّ معدتك تعالَ وأخرجني من فضلك.

- قل كلمة السر.

- تبًّا لك.

- إذًا ستظل أسفل السور هكذا.

- حسنًا أنا آسف أني قد سخرت منك وأنت فوق السور.

ويهتز جسد أكرم في صمتٍ ثم يرتج بعد أن يُنهِي عبارته، يهتف قدري: أنت تضحك الآن؟

يقهقه أكرم بصوت عالٍ وهو يهتف: لقد تذكرت منظرك.

- تبًّا لك، أنا راحل من هنا.

- انتظر انتظر.. ساعدني بالله عليك.

- قل كلمة السر.

- أنا آسف.

- تلك ليست كلمة السر.

- أرجوك.

- مخطئ مرة أخرى.

- سوف أفعل أي شيء تريده.

- مخطئ وغبي.. قلت لك كلمة السر وليست عبارة السر.

- آه.. حي أو ميت سوف تأتي معي.

كانت تلك الجملة المقتبسة من فيلم «الشرطي الآلي» الذي وقع الاثنان في غرامه فور مشاهدته..

- كلمة سر جيدة لكن الخطأ...

- أه.. إممم.. يبيكاي.

- أنا لا أحب هذا الفيلم.

- لأنك وغد أحمق، هذا أفضل فيلم حركة على الإطلاق.. لا أعلم لماذا يترجمونه باسم الشيطان في مهمة صعبة.. ترجمته الصحيحة «مت بصعوبة».

- تبًا لك ولبروس ويليس.. قل كلمة السر الصحيحة.

- أنت قد أسأت لويليس.. سوف أوسع مؤخرتك ركلًا عندما أخرج من هنا.

- قل كلمة السر اللعينة.

- يا شيخ حرااام عليك.

يضحك قدري تلك المرة ويتجه ليمسك بذراع أكرم ويجره، ويهتف أكرم: لا أعلم لماذا تحب هذا الفيلم لتلك الدرجة؟.. لماذا يجب أن تكون كلمة السر من هذا الفيلم؟

- لأنه فيلم مخيف ورائع.. إسماعيل يس وعبد الفتاح القصري يحاربان المومياء والرجل الذئب والساحر الشرير.. هذا أفضل من بروس ويليس اللعين هذا..

يطرحه أكرم أرضًا وهو يهتف مقلدًا بروس: يبيكاياي..

يعرقله قدري فيسقط أكرم فوق الأول ويتصارع الاثنان قبل أن يلمح أكرم حارس الأمن يجول فيهتف: يا شيخ حرام عليك.

يتأهب قدري فور سماعه لكلمة السر ويتلفت حوله قبل أن يعدو الاثنان مبتعدين عن فناء اللعب والإستاد وتدوي ضحكاتهما في الأرجاء..

يسير الاثنان جوار سور الإستاد مرهقين بعد عدة جولات من سباق العدو.. قبل أن يروها.. فتاة مراهقة، أكبر منهما بأعوام.. تسير وحيدة وهي تنظر للأرض بحزن، ويتسمر الاثنان مكانهما فور رؤيتها كأنهما قد رأيا مخلوقًا ساحرًا من عالم موازٍ ولربما كانا سيجمدان مكانهما بنفس الشكل لو كان «تشاكي» قد خرج لهما من التلفاز ملوحًا بالسكين.. يبتلع قدري ريقه بصوت مسموع، وينتفض أكرم.. الفتاة ممشوقة القوام.. طويلة العنق.. شعرها الأسود الطويل المموج يلمع مع ضوء القمر، تلمع انبعاجاته للتحديد، ترتدي سروالًا من الجينز وقميصًا أبيض مفتوح الصدر، هناك قلادة رفيعة تتدلى من عنقها، عيناها ضيقتان.. فمها.. يا إلهي.. يفكر أكرم وهو ينظر إليها.. أهذا

طلاء أحمر على شفتيها.. تلك هي مرتهما الأولى في رؤية فاتنة تسير وحيدة بهذا الشكل، كل الفتيات اللاتي في مرحلتهما العمرية عبارة عن كائنات لزجة وعنيفة ويتشاجرن معهما.. لكن رؤية مراهقة تكبرهما بأعوام أمر مختلف تمامًا.. ويشعر أكرم أن تلك أول مرة يرى فيها فاتنة ترتدي سروالًا من الجينز..

يغمغم قدري مبهوتًا: لماذا هي حزينة؟

- ربما لأنها رأتك.

يلكمه قدري بحرص كي لا ينبه الفتاة التي لم ترَ أيًا منهما من بعيد، هنا يظهر ثلاثة فتيان يسيرون بخيلاء، يتأهب كل من قدري وأكرم.. هما لا يعرفان هؤلاء الغرباء لكن حاسة الشم لديهما قادرة على تمييز المتنمرين بعد أعوام من المعاناة..

هؤلاء مثل الأوغاد الذين في المدرسة الذين يتسلون بهما، ولسوف يضايقون هذا الملاك الساحر الوحيد..

وبالفعل يحدث هذا.. يقترب قائدهم - الذي يسير بأكثر درجة من التبختر هو القائد كما تنص عليه العادة - منها ويميل نحوها ويقول شيئًا ما فيضحك رفاقه قبل أن يمد - الوغد - يده ويلمس شعرها الجميل.. تتسع عيني أكرم في غضب ويتبادل نظرة سلام يا صاحبي إياها مع قدري قبل أن يذهب الاثنان للمعركة..

- أنت وغد.

صاح أكرم بالعبارة في انفعال وهو يبدو كالثور الهائج قبل أن ينقض على

الفتى فارع القامة الذي ظلَّ يتحرش ويتنمر بالفتاة..

وانقضَّ قدري وهو يصيح مقلدًا «شوارزنيجر» في فيلم «كوماندو» على فتى آخر ليتلقى صفعة على أذنه أسقطته أرضًا وهو يشعر بطنين هائل قبل أن يجهش بالبكاء، تذكَّر بعدها وجود الفتاة فكف عن البكاء فورًا، في الحين ذاته تلقى أكرم علقة لا بأس بها..

هنا زعقت الفتاة بعنفٍ ونهرت الفتية الذين نظروا إليها وقد أدركوا أن الموضوع قد يبكر، قانون المتنمرين: لا تحول المضايقة لاعتداء واهرب بسرعة..

يرحل الفتية الثلاثة الذين سخروا من قدري وأكرم في بادئ الأمر قبل أن تعتليهم الدهشة لمحاولة الصبيين أن يتحدوهم..

الحقيقة أن تلك كانت المرة الأولى التي تصدى أكرم أو قدري لمتنمر.. وشعور المواجهة هذا كان عظيمًا.. لا مزيد من الهرب والاحتماء والهروب من التفكير فيما حدث.. فيما بعد سيقرر كلٌّ منهما مَن هو «فان دام» ومَن هو «ستالون».. الآن عليهما فعل الشيء الجريء حقًّا؛ مواجهة الملاك الحزين..

يعتدل الاثنان ويقفان أمام الفتاة التي لم تمنع ابتسامة من اعتلاء شفتيها وهي تنظر إليهما قبل أن تهمس لهما إزاء خجلهما: شكرًا.

يكاد أن يغشى على قدري فور أن تتحدث هي، أما أكرم فقد شعر أنَّ والديه قد نسياه في متجر للحلوى..

- أنا نسرين.

وشدت الفتاة على يد كل منهما، ملمس يدها كان ناعمًا وجميلًا، وقرر

الاثنان أنهما سيتذكران هذا الملمس طيلة حياتهما..

- أنا أكرم.

- وأنا قدري.

- شكرًا على مساعدتكما يا أبطال.

تنتفخ أوداجهما وتحمر وجوههما وتضحك هي..

كانت تلك بداية صداقتهما مع نسرين.. صداقة تغيّر معها كل شيء بعد ذلك، ولم تمر سوى أشهر قليلة بعد انعقاد تلك الصداقة قبل أن يصل البعبع للمدينة..

الفصل الرابع

- السيرك قادم.

ارتسمت العبارة على يدي المهرج فوق اللوحة الإعلانية الضخمة، وهتف أكرم لوالدته في حماس: السيرك يا ماما.

تبتسم والدته في ادعاء الكبار اللطيف بالتظاهر بالاهتمام وتهتف: العطلة القادمة يا صغيري سيصل السيرك.

كان الحدث هذا الأسبوع - قبل أن يهيمن السيرك على الأنباء ويسترعي الانتباه في محافظتهم الصغيرة - هو عرض القناة الأولى لفيلم الإنس والجن.. لقد تحدَّى الجميع في الفصل بعضهم البعض إن كانوا سوف يتمكنون من إنهاء الفيلم أم لا، وتبادل أكرم وقدري نظرات صامتة خبيثة، هما قد شاهدا فيلم «التعويذة» وفيلم «تشاكي»، وشاهدا فيلم «الرجل ذو القناع» الذي يقتل جليسات الأطفال الأمريكيات، إضافة لإدمان أكرم لسلسلة صرخة الرعب.. ولذا لا يعتقد أيٌّ منهما أن الفيلم سيخيفهما، لكنه غاية في الحماس لمشاهدته على أي حالٍ.. وقد بكى أكرم في غرفته عندما منعه والده من مشاهدة الفيلم لأنه يريد مشاهدة مباراة كرة قدم تبثها القناة الثانية.. بكى بشدة وبحرقة.. وتذكَّر عندما كان يلعب في العيد مع أصدقائه ونادته أمه في حماس ليشاهد حلقات هرقل التي تعرض للمرة الأولى وشعر بحب مُبرَّر لوالدته التي تهتم لما يريده، تبًا لمباريات كرة القدم.. وتبًا لوالده.. لا يفهم مبدأ الكبار المتناقض هذا، والده المتدين دومًا ينهر والدته وينتقدها بحجة أن التلفاز حرام لكنه يجلس ليتابع في استمتاع وسعادة حقيقية، لم

تمتلك عائلة أكرم جهاز شرائط الفيديو، بخلاف عائلة قدري الأكثر ثراء قليلًا لعمل والد الأخير في السعودية، لقد كان حدثًا قوميًا عندما أرسل لهم جهاز الفيديو.. وكان رأي أكرم أن كل من يستطيع تحمُّل نفقة امتلاك هذا الجهاز أمام شديد الثراء أو لص أو الاثنين..

ربما كان يبكي لأنه قد سئم كونه مختلفًا عن الجميع، حتى فيلم الإنس والجن.. الكل يشاهده الآن عدا هو..

عندما نام والداه تسلَّل للصالة واتصل بقدري وهو يأمُل أن يجيب هو وليس والدته، إنها الثانية عشرة والنصف ليلًا لا بُدَّ أن الفيلم قد انتهى.

أتاه صوت قدري المبهور وهو يهتف:

- الفيلم كان رائعًا.. أنا لا أستطيع التلفت حولي.. أرأيت عندما اختفى عادل إمام؟

تسود فترة صمت يشوبها الشعور بالخزي قبل أن يعترف أكرم: لم أشاهده.

- هل تمزح؟

- والدي كان يشاهد المباراة.

صمت مرة أخرى قبل أن يقول قدري بطريقته المعتادة في مواساة أكرم والاعتناء به: لو كان والدي هنا لفعل نفس الشيء في الأغلب..

يشعر أكرم بأنه أفضل قليلًا.

يضيف قدري: كما أني سجلت لك الفيلم أيها الأحمق، على جهاز الفيديو على أي حال.

يشعر أكرم بأنه أفضل كثيرًا ويضحك في سعادة.

- علينا إيجاد حل في مسألة نسرين، وعائلتك التي تريد الذهاب معك للسيرك.

- نعم لا بُدَّ أن نجد حلًّا.

- هلا كففت عن تكرار ما أقوله!

- حسنًا حسنًا.

يعتصر أكرم سماعة الهاتف المنزلي قبل أن يهمس متحاشيًا إيقاظ والديه اللذين خلدا للنوم أخيرًا بعد شجار يوم كامل:

- أنا لا أريد الذهاب للسيرك معهم.. ونسرين لن تستطيع القدوم معنا لو أتوا.. لا بُدَّ أن أقنعهم بعدم المجيء.

- أنا قد أقنعت أمي بتركي لسبيل حالي، ولم تكن تلك بالمهمة العسيرة على أي حال.

كان هناك نبرة تهكُّم في صوت قدري ميَّزها أكرم جيدًا، والدته المنشغلة دومًا بعملها ووالده الذي يعمل كطبيب في السعودية.. وشعور قدري الذي ينكره في العلن دومًا، بالإهمال.. ربما وعي الطفل لم يكوِّن كلمة إهمال بعد لكن قلبه بالتأكيد يشعر بها.. حقيقة أن والديّ أكرم شديدا العصبية ويتطاولان على بعض - وعليه أحيانًا - بالسباب والأيدي.. وربما نقول إن الفتى ضحية مثالية للعنف المنزلي.. لكنهما حارَّان الدماء، لا برود هناك.. وأكرم يشعر أن البرود قد اكتفى بمنزل قدري فحسب..

- حسنًا سأحاول إقناعهم في الصباح، والآن عليّ الذهاب قبل أن يوسعني أبي ضربًا..

لم تكن العبارة بحاجة للمزيد من التفسير بالنسبة لقدري، هو يعلم أن والد أكرم شديد التديُّن وسيضرب ابنه بلا هوادة معتمدًا على افتراض أن أكرم يتحدث مع فتاة في منتصف الليل..

ينهي قدري المكالمة..

علي مائدة الإفطار، يقول أكرم ببطءٍ وهو يلوك الطعام بعدما يحاول تجميع فتات شجاعته المتناثر: آه.. إحم.. أريد الذهاب للسيرك مع قدري فحسب.. بقية الطلبة سيكونون هناك، وسيسخرون منا لو رأوكما معنا..

يتبادل والده النظر مع والدته، هم يعلمون أن الفتى يتعرض للتنمر بشدة، والده لا يمانع هذا كثيرًا ويرى أن هذا سيصنع فتى صلبًا من ابنه في نهاية الأمر.. والدته تمانع بالقدر الكافي فقط.. الحقيقة أن والدته تريد زيارة والدتها، تلك الزيارة التي يعرقلها زوجها بكل الطرق.. ليأخذها لزيارة والدته كخطة بديلة تعويضية غير منطقية.. الأطفال شديدو الذكاء والحساسية ويمتلكون قدرًا لا بأس به من الخيال ولذا كان يعلم أكرم أن صراع الزيارات يدور في الأفق مع اقتراب العطلة الأسبوعية، وأن تلك فرصة مناسبة لانتهاز الفرصة والذهاب للسيرك مع قدري ونسرين...

بعد فترة تشويقية من الصمت تقول والدته: حسنًا..

قبل أن تبتسم له وتضيف: استمتع

***

العطلة الأسبوعية للواحد والثلاثين من أكتوبر لعام ١٩٨٨..

يوم السيرك..

انبثقت النيران بقوة من فم الرجل الأسمر شديد النحافة عاري الجسد تمامًا باستثناء لفافة قماشية تحيط خصره، وضحك بعدها كاشفًا عن صفٍّ من الأسنان شديدة البياض، مدَّ يدَه القابضة على القداحة وملأ فمه بالكحول مرة قبل أن يبصق النيران مرة أخرى بكل قوة.. وقهقه بصوتٍ عالٍ قبل أن يتراجع للخلف ويقفز ليستقر على كلتا يديه بينما قدماه تنتصبان لأعلى.. رفعت نسرين حاجبيها مبتسمة وهي تنظر إليها، اصطدم بها مارٌّ من جوارها وسط الزحام الشديد في الكرنفال.. لقد استغرق الأمر ساعة لعينة في طابور الدخول، ساعة كاملة من الانتظار.. الجماهير تصطف بالآلاف بالخارج منتظرين الحدثَ المهيب.. وللحظة تعجبت نسرين من زيارة سيرك باهظ كهذا لبلدتهم الصناعية التي تشعر دومًا وكأن الجميع سوف ينسونها يومًا ما.. تعداد السكان صغير للغاية، ودخلهم الوحيد هو مصانع الحديد القريبة، لم تكن بلدتهم محافظة بشكل رسمي رغم اعتبارهم إياها كذلك، بل تتبع محافظة أخرى لكنها تظل مدينة متمدنة، بها خفر شرطة ومأمور وعدد محدود من الجنود.. مستوصف صحي واحد ومدرسة.. كما أنها بعيدة تمامًا وشِبه منعزلة عن باقي المحافظات.. تذكرت ما قاله لها أكرم ذات مرة: «أحيانًا أعتقد أن العالم بأسرِه لن يتأثر لو اختفت بلدتنا من الوجود، بدا لها حينئذٍ أن تلك عبارة ناضجة قليلة لتصدر من فتى في الابتدائية، لكنه كان محقًا.. تلفتت حولها في الكرنفال.. لا تعلم لماذا قرَّر أي كان من هو المسؤول إرسال السيرك إليهم، لكنها ممتنة على أي حال..

وقف جندي متململ تصفح هويتها قبل أن تدخل.. كانت تقف أمامه وهي تفكر في حاجتهم للشرطة لتأمين الحدث.. قبل أن يومئ لها برأسه في صمت ويتراجع بجسده سامحًا لهم بالدخول، تنظر نسرين لكل المصطفين في الطابور.. وتتذكر القلق الذي انتابها وهي تقترب من البوابة وحارس الأمن المهيب.. وتغمغم: أنا بريئة يا افندم.. تجاهل تعبير التوتر على وجهي، إنها رهبة السُلطة فحسب.

تنقطع أفكار نسرين وعيناها ترتكزان على نافورة العجائب أمامهم، نافورة ضخمة بالداخل مقابِلة لباب الكرنفال.. مصممة من الذهب أو شيء يلمع كالذهب، تبدو كقطعة أثرية من أيام محمد على ومنها تنبثق بنعومة أجساد بشرية للاعبي جومباز مبتسمين، وقد فردوا أجسادهم برشاقة ونعومة وهم يرتدون زِيّ راقصي الباليه ووجوههم ملطخة بالطلاء الأبيض.. يخرجون من فوهة النافورة وهم ملتفون حول عامود من العاج منصوب للسماء.. هتفت نسرين: يا للجمال والروعة.. يا إلهي يا للجمال والروعة!

وتلفتت حولها، وهي تتمنى لو كان قدري وأكرم معها في تلك اللحظة، تنظر في ساعتها الجلدية.. لقد اتفقت على مقابلتهم أمام البوابة الداخلية في تمام السابعة مساءً، ولقد أخّرها الطابور.. هل رحلوا وتركوها؟.. إنهم أطفال في نهاية الأمر.. لا بُدَّ أن يلهون حول لعبة ما وقد نسوا أمرها تمامًا.. لا تعلم لماذا لكنها وجدت صداقة بسيطة وعفوية معهم.. لا يوجد ادعاء وتكلُّف وانتقادات أصدقائها ذوي نفس المرحلة العمرية، كما أن سذاجة الصبيين ساعدتها بشكلٍ ما في تخطي سبب حزنها ودموعها في تلك الليلة التي قابلتهم فيها، الليلة التي أخبرها فيها الوغد إياه أنه قد ارتبط بأخرى.. كان

هناك الكثير من أغاني عمرو ودياب ومنير.. والكثير من قدري وأكرم..

الفتيات يتخطَّين العلاقات بالأغاني الحزينة والشجن والعلاقات الجديدة، لكنها أوجدت لنفسها كائنات القدري والأكرم لتصبح أفضل، ضحكت لأفكارها وتلفتت حولها بحثًا عنهم وهي تقول: أين أنتم يا ملاعين؟

يكاد قدري يُطلِق سُبة وهو يقف في الطابور الطويل ويتأفف، أكرم يشعر بحنقٍ لا مثيل له وهو يشعر أن اليوم الذي قد انتظره كثيرًا وتخيله سيُهدَر، تأفف قدري بدوره.. هو يريد قضاء يومه في السيرك مع نسرين.. لقد تخيل تلك اللحظة كثيرًا.. سيعترف لها بحبه.. سيخبرها.. لو واتته الشجاعة.. يهمس قدري وهو يجز على أسنانه: لنترك طابور الجحيم هذا ونتسلل من السور.

- ألا تعتقد أن كل هؤلاء الواقفين قد فكروا في خطتك العبقرية تلك.. لا أعتقد أن هناك ثغرة لنعبر منها.

- ثغرة؟.. من أين تعلمت تلك الكلمة أيها الأخرق؟

- من روايات الجيب.. صرخة الرعب.. لقد قرأتها هناك.

- تبًا لك.

- تبًا لك أنت أيضًا.

- لنتسلل من السور.

- ولكن...

- لنحاول.. هذا أفضل من الانتظار هنا للأبد.

يخرج الاثنان من الطابور ويدوران حول الكرنفال فاقدي الأمل.. قبل أن

يقول قدري مفكرًا: سأرفعك على يدي وتدخل بعدها تحملني.. تبدو تلك كمنطقة آمنة لن يرانا أحد.

- بالطبع بالطبع، وبعدها سنحكم العالم ونقتل العصابات بالبوازيك.

- الديك خطة أفضل؟

يهز أكرم كتفيه، يعقد قدري يديه ويعتليهما أكرم ليسقط في المرة الأولى.. والثانية قبل أن يتمسك بالسور وينزلق ليسقط أرضًا، ساقه تؤلمه بشدة، وهناك رغبة في البكاء لكنه يقاومها، أنت رجل الآن وقد أنهيت المرحلة الابتدائية، لا يوجد وقت للبكاء..

يعتلي يديّ قدري للمرة الأخيرة ويعتلي السور، يثبت نفسه من فوق ويمد يديه ليرفع قدري وهو يهتف: سوف تتمزق يداي.. كان علينا أن نعكس أيها الوغد الثقيل..

لا يرد قدري ويحاول أن يخفف من نفسه بطُرق بلهاء فقط ليسحب أكرم للخلف ويسقط الاثنان فوق بعضهم البعض..

- تبًا لك.

- تبًا لك أنت أيضًا.

- حسنًا لنعكس..

تنجح الخطة تلك المرة ويدلف الاثنان للسيرك..

ويهرعان للبحث عن البوابة حيثما اتفقا؛ لمقابلة نسرين..

وفور أن أصبحا بالداخل تلفتا حولهما بانبهار وقد نسوا أمر نسرين

للحظات.. أمام أعينهم يتحرك بالون ضخم ليرتفع لأعلى وعلى متنه أربعة رجال مفتولي العضلات وممشوقي القوام يحملون هراوات خشبية ويلتف القماش حول خاصرهم..

من مكانها رأت نسرين البالون يحلّق وغمغمت: رجال الكهف والبالون.. كأنه لوحة مرسومة..

يقف قدري مبهوتًا أمام كوخ خشبي وراءه بحيرة صغيرة.. والكل يسير من حولها كأنهم لا يرونها.. يحلّق به قدري وهو يهتف: لقد كاد أحد المتحمسين من الزوار أن يدهمني وهو يسير باتجاه متجر الحلوى.

- متجر الحلوى؟

أشار بيده لفتاة شقراء ترتدي فستانًا قصيرًا «حمالات» يكشف كتفيها الرائعين، وتجلس القرفصاء.. تجلس على مكعبات كبيرة من الحلوى كأنها واحدة منهم..

صفر أكرم في انبهار وهو ينظر للفتاة وضحك قدري..

مرت امرأة عجوز وراء نسرين.. انتبهت إليها نسرين.. ألقت العجوز نظرة أخيرة إليها قبل أن تدخل خيمة واسعة على شكل كوخ.. وقد كُتِبَت عبارة ما على الخيمة لم تستطع نسرين قراءتها في البدء.. اقتربت قليلًا وقرأت بوضوح: «خيمة العرافة».

- وجدناكِ..

انتفضت نسرين مع صيحة قدري وضحكاته وأجفلت وشاركه أكرم الضحك.. وهو يشعر بالارتياح أنهم قد وجدوها ولم يضلوا منها وسط كل

هذا الزحام..

نظر قدري لبوابة استقر فوقها تمثال قرمزي لغراب ضخم.. تنهدت نسرين وهي تنظر للغراب شاعرة أنها «آليس» وتلك هي بلاد العجائب.. لقد انتقلت في الزمن.. الزمان غير الزمان.. تشعر كأنها قد رحلت للماضي الذي لطالما سحرَ المتحسرين عليه.. على يمينها قلعة صغيرة مصنوعة بشكل فاخر وبدقة وعناية.. وعلى بابها يقف فارس عربي يتراقص في غمده سيفٌ شديدُ الضخامة، وعلى يمينه مرآة شديدة الضخامة تقف أمامها فاتنة غجرية سوداء الشعر، تقف مولية ظهرها للمرآة وناظرة لحشد من الناس الواقفين أمام المرآة ينظرون لانعكاسهم.. تلمح الغجرية تبتسم وتتمتم بشيء ما للجمهور.. وترى انعكاس رأسها في المرآة، مؤخرة رأسها عبارة عن رأس آخر صغير لطفل، رفعت حاجبيها وانقبض ما بين ضلوعها وفكرت أنهم بذلوا الكثير من الجهد والمؤثرات في هذا الاحتفال الضخم.. وهذا تفسير الأمن والشرطة.. هناك الكثير من الأموال التي تم استثمارها في هذا الكرنفال.. وهذا تفسير آخر لسعر التذكرة الباهظ.

Telegram:@mbooks90

تسألهم: ما الفرق بين الكرنفال والسيرك؟

يهز كلٌ منهما كتفيه ضاحكين.. بعدها يسير الثلاثة متشابكي الأيدي ويقفون أمام الكثير من الخُضرة الصناعية المحاطة بالأشجار كأنك تقف على مشارف غابة «شيروود» الشهيرة التي اختبأ بها «روبن هوود» وعصابته.. ينظر أكرم للأشجار الضخمة شديدة الخضرة.. على جذوعها الطويلة ينام رجال عراة الجذوع.. وفتيات.. وأطفال.. إنهم ينبتون من الأشجار.. كأنه يقف أمام لوحة مخيفة بعنوان: الأشجار تلد كائنات أخرى.. وجد نفسه يهز رأسه

في إعجاب ويصفق.. لا توجد طريقة للتيقن إن كانوا هؤلاء دمى محاكية للبشر مصنوعة بدقة أم ممثلين في الكرنفال؟! ولكن في كل الأحوال الأمر مهيب بشدة..

تغمغم نسرين بضيق: أتمنى لو كان معي كاميرا.. تبًا.. لكنتما صورتماني أمام تلك الغابة.

يواصلون السير.. هناك ملاءٍ ضخمة أمامهم تحتوي على ألعاب عدة، وخيمة سيرك ضخمة.. وجدوا أنفسهم يقفون مع حشدٍ من الناس أمام كهف ضخم.. جواره يقف رجلُ غابٍ طويلُ الناب مع امرأته..

نظر قدري لبوابة الكهف الضخمة الداعية الجمهور للدخول.. التفت وراءه ورآها.. ولوهلة شعر بالتوتر يغمر جسده.. لوحة متوسطة الحجم لباخرة ضخمة تبحر وسط ضباب البحر.. جوار اللوحة يقف مُهرِّج ضاحك ويشير للوحة وهو يرسم على الهواء.. اتجه قدري للمهرج الصامت مبتعدًا عن نسرين وأكرم.. وقف الفتى أمام المهرج وقال بخوفٍ: أيوجد اسم لتلك الباخرة؟

نظر المهرج لقدري وشفتاه قابضتان على بعضهما البعض، ابتسامته تتزايد حتى ليكاد ليكشف عن أسنانه لكنه لا يفعل هذا، فقط يقفز للخلف بحركة بهلوانية ويستقر على يديه قبل يقفز ويعود ليقف على قدميه ويضحك بفم مغلق..

ابتلع قدري ريقه وهو يشعر برهبة تجاه المهرج غريب الأطوار.. حاول التدقيق في اللوحة.. تفاصيل الباخرة غير واضحة بسبب الضباب، لكن بإمكانك تبيُّن أنها عتيقة للغاية وشديدة الضخامة.. باخرة قوية الشخصية لو

كان هناك شيء كهذا..

هنا صاح رجل الغاب وهو يقف أمام الكهف للحشود: مرحبًا بكم في كهف الرعب، حيث تمتلئ جدران المغارة برسومات رجل الغاب القديمة.. الجدران المتعرجة التي تحمل رسومات لقوم يرقصون حول النيران ويهللون للسماء.. ورسمة أخرى لمجموعة من الذئاب وهي تنقض على أطفال نائمين.. وامرأة تولول محاوِلة إنقاذ أطفالها.. الظلام هو سيد اللعبة ها هنا.. والكهف يمتد ويتسمع كلما خطوت بداخله كأنه متاهة حنون تحتضنك للما لا نهاية.

رفعت نسرين حاجبيها، كانت قد اعتادت أسلوب شركة تميمة في التسويق ولم تعتقد أن أحدًا سيسوق لبيت رعب بتلك الطريقة الشعرية، همس أكرم في حماس: لندخل..

هزت هي رأسها بشكل قاطع وصاحت: أكره الرعب..

- أرجووووكِ...

قالها أكرم وهو يطيل الكلمة كأنه يلح قبل يندم فورًا على ما فعله لأنه سيبدو كالطفل أمامها، ضحكت نسرين وقالت: لا تكن لحوحًا يا أنف بينوكيو..

كان يغتاظ بشدة عندما تناديه بهذا اللقب، عندما سمعها تناديه هكذا للمرة الأولى هتف: ولكني لست كاذبًا.. فغمزت له قائلة: لم أقل إنك مثل بينوكيو.. قلت إن أنفك يشبه أنفه فحسب.. وضحكت بعدها ليفتتن أكرم بضحكاتها وينسى غيظه..

عض على شفتيه تلك المرة وقال: قدري، ما رأيك؟.. أريد الذهاب لكهف أو

بيت الرعب هذا..

قدري لم يرد..

قدري كان يقف موليًا إياهما ظهره كأن أحدهم قد نوَّمه مغناطيسيًا..

التفت الاثنان لينظرا إلى ما يرمقه صديقهما الصغير..

إلى متحف الشمع

***

الفصل الخامس

عام ٢٠٢٠

أشعل أكرم لفافة تبغ ونثف دخانها وهو يجلس في شُرفته مع قدري بعدما رحل الجميع.. يوم آخر ينقضي ويبحث عنهما كالمجنون..

- علينا أن نعود.

ظلَّ أكرم صامتًا وهو يرمق السماء قبل أن يتحدث، ببطءٍ وحزمٍ: سأذهب.. وسوف أعود.. أنا لن أطلب منك المجيء معي.. أنت عانيت الكثير تلك الليلة.. لقد نجونا بعدما خسرنا الكثير.. لن أطلب منك العودة.

- أتعتقد حقًّا أني لن آتي؟

- تبًّا لك.

- تبًّا لك أنت أيضًا.

كانت تلك مرتهما الأولى في تبادُل السباب المازح بطريقتهما القديمة، ولوهلة شعر كلٌّ منهما بنشاط وطاقة الطفولة من جديد وكأن مسئوليات الحياة وتغيُّراتها قد اختفت بسحر حاوٍ عربيٍّ قديمٍ..

نظر أكرم للقمر المكتمل وفشل في مقاومة دموعه.. قبل أن يقول بصوت تعتليه الغصة: أتعتقد حقًّا أنه قد عاد؟

- لا أعلم..

- لا بُدَّ أنهم قد هدموا المكان.

- لم يهدموه.. قصر سليمان باشا لا يزال قائمًا..

يتنهد أكرم، ويتذكر خوف قدري وهم أطفال.. خوفه عندما كانوا يمروا جوار قصر سليمان باشا.. لكل بلده صغيرة أساطيرها وحكاياتها.. وفي محافظتهم تحدث العجائز عن القصر الذي شُيّدَ في عام ١٩٢٢.. مالكه كان إقطاعيًا عثمانيًا ظلَّ في مصر بعد إعلان الاحتلال البريطاني - الحماية البريطانية كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت - ويقول البعض إن سليمان باشا كان عاطلًا بالوراثة.. شديد الثراء.. يمتلك الجاه والخدم.. وكان الفلاحون وأهل البلدة يهابونه بشدة.. عندما تمر عربته الحنطور الفاخرة المطلية بالذهب.. والحقيقي أن سليمان قد طلى ذهبه باللون الأسود.. تمر عربته السوداء المهيبة التي تجرها خيولها الجامحة المستعدة لدهس أي أحد في الشارع.. وتنفتح بوابة القصر العظيم.. المحاط بحديقة ضخمة مطلة على النيل.. أسوار القصر العالية تعزله عن المدينة.. ربما كان قصر سليمان أكبر حجمًا من قصر البارون.. وبالتأكيد هيبته أقوى.. وظلَّ القصر مهجورًا منذ عام ١٩٣٣ بعدما قتل سليمان زوجته وأبناءه وانتحر.. هناك أقاويل أخرى أن الخُط ورجاله اقتحموا القصر وفتكوا بقاطنيه.. حينئذٍ كانت البلد أغلبها صحراء وبيوت من الطوب الأحمر.. وكثر فيها بشدة حيوان «ابن آوي» حتى لقبها البعض باسم مدينة ابن آوي.. ولهذا انتشرت حكايات أخرى أن عائلة من حيوانات «ابن آوي» افترست سليمان وعائلته.. لكن الشائعة الأكثر انتشارًا أنه ذبحهم وانتحر.. وظلَّ القصر مهجورًا بلا ورثة لتتحفظ عليه الحكومة مؤخرًا.. قال الكثيرون إنهم رأوا أناسًا في القصر.. وستائر تتحرك.. وأحيانًا تحدثون أن سليمان يقف بوجهٍ أبيض منتفخ وعينين سوداوين ينظر من

شرفته.. لم يفهم أحدٌ سبب هذا الوصف لأن الرجل لم يفرق، ومع الوقت أصبح الكثيرون يبسملون ويحوقلون وهم يمرون جوار القصر.. البعض الآخر تحدَّث عن الطاقة النفسية التي يمتلكها القصر، وأنها السبب الحقيقي الذي أفقَد سليمان باشا عقله وجعله يفتك بعائلته.. تحدثوا عن أن بعض البيوت تمتلك شخصية خاصة بها.. وأن قصر سليمان يمتلك تلك الشخصية.. تلك الطاقة.. بعضهم فسر بهذا بأرواح العمال الذي هلكوا أثناء تشييده، والآخرون قالوا إنه مبنيٌ على مقبرة من أيام حروب المماليك وأن عظامهم قد التحمت بالجدران.. البعض قال إن الشر قد اتخذ من القصر مكانًا له فحسب.. ولكن كانت هناك حكاية أخرى.. حكاية عن القوم الذين هلكوا تحت الأرض وهم يشيدون الأنفاق الداخلية التي طلبها سليمان.. كيف أن الصخور قد وقعت عليهم ونفقوا جوعًا وظمأ عدا القليل منهم الذين أكلوا أجساد مَن هلكوا كي ينجوا، وتزاوجوا مكونين عشيرتهم الخاصة، وأنهم تحوَّلوا لآكلي لحوم بشر.. وظلوا يحاولون الخروج.. حتى تمكنوا أخيرًا.. تلك كانت حكاية جامحة الخيال.. زوجة سليمان جالسة لتجد رجال غابٍ خارجين من تحت الأرض ليمزقوها إربًا.. لم يعلم أحدٌ حقيقة ما حدثَ.. لكن الجميع كان يعلم أن القصر - ببساطة - مخيف.. ثم أتى عام ١٩٨٨، وقادت الأحداث المروِّعة التي حدثت، أكرم وقدري للقصر..

يفيق أكرم من أفكاره وهو يسحب نفسًا عميقًا من لفافة التبغ، نظر لقدري الذي أخبره للتو أن القصر لا يزال قائمًا..

- إذًا لقد حان وقت العودة.

- غدًا نتحرك في الصباح الباكر.

يربت قدري على كتف أكرم ويرحل تاركًا الأخير.

..

يجول أكرم في شقته وحيدًا قبل أن يقف أمام التماثيل..

تمثالا الشمع يمثلان زوجته وابنه، في البدء عندما أخبره قدري أنه قد نحتهما من أجله كاد أكرم أن يفرغ ما في جوفه، الفكرة مضطربة للغاية.. لكنه يعلم أن قدري كان مُحقًا، هو يفتقدهما بشدة ويريد أن يراهما، حتى لو كانا تمثالَ شمعٍ.. وقدري فنان موهوب للغاية عندما يتعلق الأمر بموهبته في النحت وصُنع تماثيل الشمع وقد عُرِضَت أعماله في أكثر من متحف من قبل..

وطيلة الفترة السابقة عندما يرهق أكرم من البحث والتجوال يعود للبيت ويجلس قبالة التماثلين المصنوعين بعناية لهما..

ماجي بشعرها الأشقر الذي تركته يستطيل بعدما تزوجت، وشمها المحبب على ظهرها، ترتدي فستانًا ذا حمالات.. فستان أزرق لأن هذا ببساطة هو لونُها المفضل.. وتنظر شاردة بوجه واجمٍ للمجهول كعادتها كلما أوشكت على الرسم، جوارها يقف مازن الصغير وهو يمسك يدها.. يده الصغيرة تستقر في حضن يدِ والدته، يرتدي ملابسه القطنية ويضحك.. يبكي أكرم وهو ينظر إليه قبل أن يقبّل يدَ تمثال زوجته ويهتف: سامحوني.. لقد فشلت في حمايتكما.. لكني سوف أجدكما.. أعدكما بهذا..

يتذكر طفولته وينظر للتماثيل وهو وحيد يبكي، لَكَم هي قاسية حياة البالغين.. يلثم يدَ التمثال وهو يكرر باكيًا: أين أنتما؟..

***

عام ١٩٨٨

كانوا لا يزالون في السيرك..

التفت أكرم ونسرين لينظرا لقدري الواقف مبهوتًا ومحدقًا بمتحف الشمع.. وقبل أن يطالبهما بالذهاب هتفت نسرين: لنذهب لخيمة العرافة.

ترفع العرافة ناظريها لضيوفها على مشارف الخيمة وتشير لهم بالدخول.. بخُطى مترددة تسير نسرين للداخل ويعقبها أكرم، يهتف قدري في غيظٍ: أريد الذهاب لمتحف الشمع.

ينكزه أكرم ويهمس: سنذهب، لكن نسرين تريد العرافة في بادئ الأمر.. اصبر يا رجل.

يطرب قدري لمناديه أكرم له بلقب رجل ويتمنى لو أن نسرين قد سمعت ما حدثَ للتو..

تسير الأخيرة نحو الساحرة العجوز ذات القبعة الطويلة والرداء القرمزي الواسع الممتلئ بالقش، الكثير والكثير من الجواهر تعتلي ذراع العجوز، ينبض قلب نسرين وهي تنظر إليها.. هي تدرك جيدًا أن هذا السيرك الساحر ليس إلا ترفيهًا صناعيًا مصنوعًا بعناية وبابتكار بعد أن تم إنفاق الأموال عليه، لكن أيًا كان مَن يدير هذا السيرك.. فقط نجح في إيصال الشعور لها.. الشعور بالسّحر..

تبتسم العجوز كاشفة عن صفٍّ من الأسنان الصناعية النخرة وتقول: الطالع..

تمسك يد نسرين بعدها وترتجف الفتاة، تحاول ألا تتخيل حياة العجوز

الفقيرة خارج أوقات عملها كي لا تفسد على نفسها متعة اللحظة الحالية..

- مستقبلك مشرق يا جميلة.. ستتزوجين رجل أعمال ثريًا ولسوف ترحلين معه.. سترين العالم كله.

تنظر العرافة في عينيّ نسرين بعدها، هذا ما يريد الزبائن سماعه دومًا على أي حال، لسان حال العرافة يكاد يقول: «لو كنت أمتلك قدرة التنبؤ حقًا لكنت فزت في اليانصيب وابتعت هذا السيرك اللعين.»

أو ربما لسان حالها لم يكن يقول هذا، ربما هي فقط أعطت نسرين ما اعتقدت هي أنها تبغيه.. مالت العرافة وهمست بشيءٍ ما في أذن نسرين، لم يسمعه أكرم ولا قدري.. اتسعت عينا نسرين وهي تسمع باقي النبوءة، قبل أن يحمر وجهها، تعود الفتاة بعدها للخلف ويتقدم قدري بخطى واثقة.. نظرت العرافة له قليلًا قبل أن تقول: تقدَّم أيها الفتى البدين..

بدا الضيق على وجه قدري، وأراد ركل العرافة في غيظ لمناداته بـ «البدين»، فقط لأنه ممتلئ الجسد يتعرض لأسوأ أنواع الانتقاد.. مدَّ يده إليها في عصبية.. نظرت العجوز في كفه قبل أن ترفع ناظريها إليه، مرَّ الوقت وسمع أكرم صوت عقارب الساعة وإن كان لا يعلم مَن يأتي بالتحديد..

تك.. تك.. تك..

بصوتها الأجش قالت العرافه: ستنجح في كل ما تريده..

- ها.. فقط هذا لا شيء آخر؟

تجاهلته العرافة وتقدَّم أكرم بعدها.. قبضت العجوز على كتفه.. ارتجفت ونظرت إليه مسرعة..

- آه يا ولدي.. الحياة تنتظرك.. كوحش عجوز لم تصدأ مخالبه ولا أنيابه.. آه يا ولدي.. لسوف تضل الطريق.. وتفقد أحبّاءك.. سيأخذهم هو.. هو.. هو..

ظلت تكرر الكلمة وهي تتلفت حولها حتى أظنّ أكرم أنها جنت، تقدّمت نسرين للأمام وأمسكت كتفه لتسحبه للخلف وتقول بتلعثم: آه شكرًا يا سيدتي..كم حسابك؟

- خمسة جنيهات.

هتف قدري: تبًا.. هذه سعر باهظ للغاية.

أسكتته نسرين وأعطت العرافة المال قبل أن يرحل الثلاثة من الخيمة..

- عاهرة عجوز مخبولة.

بدا الضيق على وجه نسرين لاستخدام قدري لتلك الكلمة، وضحك أكرم.. تناقشوا لوهلة عمّا حدث قبل أن تنقطع أنفاسهم وتتسارع دقات قلوبهم ويتشابك الثلاثة بالأيدي تلقائيًا دون اتفاق.. حدث هذا عندما أصبحوا داخل متحف الشمع.

***

فور دخولهم البيت شديد الضخامة القائم على العاج والبلاستيك الأشبه بالطوب الأحمر، أدرك الثلاثة أن كل محيطاتهم قد تبدلت، هذا هواء من نوع مختلف، السكون المحيط كأنه يمتلك عازلًا عن الضوضاء الخارجية.. لدهشتهم لم يكن هناك أحدٌ بالداخل سواهم.. اللهم إلا من فتى وفتاة خرجا فور دخولهما، عاشقان يختلسان الغزل.. هذا ما فكرت فيه نسرين وهي

تتابعهما بعينها قبل أن يرحلا.. وتنهدت محاوِلة عدم تذكر حكايتها العاطفية.. قدري كان ينظر إليها في إعجاب بينما تقدَّم أكرم نحو الرجل المرتدي لعباءة سوداء طويلة جوار المدخل..

- آه سيدي.. معذرة.. كم سعر التذكرة؟

لم يرد عليه الرجل، وقال قدري ضاحكًا وهو يقترب منه: هذا تمثال شمع يا أحمق.

تراجع أكرم للخلف في خوفٍ، فكرة أن يعتقد أن التمثال بشر ثم يكتشف العكس قد هزَّت كيانه، الطابق الأول من المتحف يحتوي على التماثيل كلها، هناك سُلَّم مؤدٍّ لطابق ثانٍ وهميٍّ لا وجود له، لو كانوا ركزوا قليلًا لكانوا تبينوا أن متحف الشمع في الحقيقة مسرح تم إخلاؤه من المقاعد لكن منصة العرض لا تزال قائمة كخشبة مسرح فخور وإن اصطفت من حولها التماثيل في كل صوبٍ..

تصميم المكان كان كقلعة من القرون الوسطى؛ ستائر بيضاء منسدلة، تمثال شمع لفتاة تبدو حقيقية بشكل مقبض، ترتدي فستانًا أبيض مطرزًا بالشكل الفيكتوري، وترفع الفتاة الشمع في يدها وهي تنظر للأعلى محاوِلة تبيُّن شيء يبدو وكأنه قد أخافها.. ظلَّ أكرم ينظر لوجه الفتاة.. ومن خلفه تجوَّل قدري ونسرين في الأرجاء بافتتان..

هنالك تمثال لراعي بقرٍ مبتسم يرفع مسدسيه لأعلى، وراءه يقف جزار شديد الضخامة في مريوله الأبيض وهناك ساطور في يده..

تقف نسرين للحظة أمام فارس من أيام الحملات الصليبية، سيفه في

غمده.. تفاصيله كلحيته وشعره تبدو حقًا كأنها تنتمي لعالم آخر..

تُواصِل الفتاة السير ويقول قدري: أوليس من المفترض أن نرى تماثيل هتلر ونابليون؟

- هذا متحف شمع مختلف فيما يبدو.

يشعر أكرم وكأن التماثيل كلها تتابعه بأعينهم.. ينظرون إليه حيثما ذهب، يتخيل الحياة تنبض فيهم بعد أعوام من التقيُّد، راعي البقر يلتفت إليهم محتفظًا بابتسامته ويصوب أسلحته تجاههم، الجزار يهوي بالساطور على عنق نسرين قبل أن يرفع قدري عاليًا.. الفتاة ذات الفستان الأبيض تتظاهر بأنها سوف تساعده قبل أن تحرقه بالشموع.. ينفض أكرم الخيالات عن رأسه عندما يهتف قدري محدثًا نسرين: «انظري».. يلتفت أكرم في مزيج من الضيق والغيرة الطفولية لأن قدري اختصَّ نسرين فحسب، وانضم إليهم لينظر ثلاثتهم لمقصلة يعتليها جلاد يرتدي قناعًا أسود، وبينما هناك فتاة أرستقراطية شقراء مقيدة، وممددة على المقصلة، عنقها الطويل ينتظر سقوط النصل الحديدي المرعب.. ابتلعت نسرين ريقها وهي تنظر لهذا المشهد الكابوسي وكادت أذناها أن تسمعا تهليل الجماهير وهم يطالبون برأس الفتاة، انقبضت معدتها.. وكادت أن تفرغ ما في جوفها.. لقد قرأت عن الثورة المدرسية في المقرر المدرسي لكنها لم ترَ أبدًا المشهد أمام عينيها مجسَّدًا بهذا الشكل، الشعب يقتاد النبلاء واحدًا تلو الآخر ويقطعون رؤوسهم على المقصلة اللعينة، ترى ما الذي شعر به أمثال تلك الشقراء وهم عاجزون ينتظرون الموت وسط هذا الكابوس الحي.. لم تستطع نسرين لوهلة إبعاد عينيها عن عيني التمثال المتسعتين في هلع ويأس، وصرخة صامتة تخرج

من الفم المصنوع بدقة وعناية.. وكأنما قد لاحظ صديقاها تأثُّرَها بالمشهد، هتف أكرم وهو يغمز لقدري كي يشتتاها: انظر.. انظر إلى هذا التمثال..

تنهدت نسرين، وابتعدت عن المقصلة وذهبت حيثما وقفا هما.. أمام تمثال تعتليه الظلال..

- أهو، هو..؟

- نعم.. إنه هو.

- شبح الأوبرا.

- يا للروعة.

شعرت الفتاة بالافتتان يتسلل إليها وهي تتذكر حكاية شبح الأوبرا.. قصة الحب المرعبة وانتقام الشبح في النهاية.. تغمض عينيها في رومانسية وهي تتذكر رقصة شبح الأوبرا مع حبيبته.. حقيقه أنها تقف أمام النسخة المبالغ منها من شبح الأوبرا لكنها قررت تجاهُل عينه الحمراء الظاهرة من أسفل القناع جوار عينه العادية، ومخالبه الطويلة وحقيقة أنه يمتلك أنيابًا.. دَغك من جِلد وجهه المحروق والجزء الواضح منه أسفل القناع الذي يداعب عينيك..

يواصلون السير قبل أن يحاول قدري صعود السلم فتهتف نسرين: سوف تسقط على مؤخرتك.

- إممم.. حسنًا.

يدير تمثال شبح الأوبرا رأسه وهو يتابعهم بعينيه وهم يسيرون..

يهتف قدري: لنذهب لمشاهدة عرض الأسود.

يهرع ثلاثتهم ضاحكين، وفور خروجهم يدخل العاشقان للمتحف مرة أخرى بينما يدفع أكرم وقدري ونسرين تذاكر متحف الشمع للمحصّل قبل أن يرحلوا، قدري كان في حالة افتتان تامة بالمتحف وظلَّ يحلم لباقي يومه أنه سيصنع تماثيل مماثلة يومًا..

داخل متحف الشمع وضع الفتى يده على خصر فتاتِهِ ممشوقة القوام، ويقترب منها فتضحك وتدفعه برفق قبل أن تعدو بدلال وتختبئ منه بين التماثيل وهو يطاردها ضاحكًا، توقفت هي أخيرًا عند تمثال شبح الأوبرا، وقالت للفتى: ربما سأحبه هو أكثر منك هاهاها..

كانت سوداء الشعر متوسطة الطول ذات عينين سوداوين وشفتي جذابتين.. ترتدي تنورة قصيرة.. نظر إليها الفتى وهو لا يصدق حظه واقترب منها وهي تتابع: ربما سوف أتزوجه هو.

وأخرجت لسانها مغيظة فتاها..

ثم ضحكت وهي تحتضن التمثال، الحقيقة أنها كانت تتظاهر بالضحك.. لقد أرادت البكاء.. أسابيع انعقدت وهي تريد الانهيار، السماح لجسدها بالسقوط أرضًا واحتضان نفسها بكل أريحية والبكاء.. هناك حرية خبيثة في هذا الشعور، وهي تريده.. هي لا تريد التظاهر بعد الآن، لا تريد افتعال الضحك.. هي لا تريد الحياة.. ربما هذا ما يدعونه الاكتئاب.. ربما هي مريضة عقليه فحسب.. لكنها حزينة وهي تعلم هذا جيدًا.. أغمضت عينيها وأرسلت قُبلة لفتاها وهي تتظاهر بالمرح، واحتضنت التمثال ضاحكة مرة أخرى.. ثم

شهقت بألم..

ضحك الفتى معتقدًا أنها تواصل تمثيلها وواصل اقترابه منها..

بصقت الفتاة دمًا عندما انغرزت مخالب شبح الأوبرا الصناعية في معدتها، وثبتتها ذراعه القوية التي أحاطت بخصرها، قبل أن يلتف برأسه إليها وينظر إليها في جزءٍ من الثانية، نفس الجزء من الثانية الذي فتحت الفتاة فيه فمها لتصرخ.. فقط ليغرز هو قبضته داخل فمها ويمزقه بالمخالب.. تناثرت دماؤها أكثر.. دفعها للخلف لتسقط أرضًا والتفت للفتى المذعور.. انقضَّ عليه بعد أن استلَّ الخنجر من غمده وغرزه بالكامل في تجويف عين الفتى الذي خرَّ صريعًا.. التفت شبح الأوبرا للخلف.. وسار بهدوء صوب الفتاة الزاحفة التي ظلت تنظر باكية لباب الخروج حيث الزحام والزوار... حاولت أن تصرخ لكن فمها الممزق أعاقها.. ثم توقفت عن الزحف، وعن البكاء.. وارتجَّ جسدها وهي تضحك.. توقف للحظة ونظر إليها قبل أن يواصل السير.. ربما كانت تضحك وتبكي في الآنِ ذاته.. ألم لا يحتمل في فمها جعلها تدرك أنه قد قطعَ لسانها.. وضع ساقَهُ فوق ظهرها ليوقفها عن الحركة.. لكنها لم تكن تتحرك.. كانت تغمغم بألم: اقتلني.. أرجوك.. أنا أريد الموت.

لكنه لم يتبين ما تقوله.. فقط همهمات فتاة على وشك الرحيل.. انحنى برفق ليجذبها من شعرها للخلف.. ثم وضع الخنجر على عنقها.. ونحرها..

انسابت دماؤها كالسيول.. وقف شبح الأوبرا..

تلك كانت أولى جرائمه في تلك المدينة، وسيعرفه البعض باسم «البُعبُع».. يحمل جثثهم ويضعها داخل شوال أسود ضخم..

يخرج هو من المتحف ويسير وسط الزوار مندمجًا بردائه كأنه أحد العاملين في الكرنفال..

سوف يتساءلون عندما يجدون الضحايا، عن كينونة القاتل؟.. مَن هو؟.. مِن أين قَدِمَ؟.. لماذا يفعل ما يفعله؟.. دعهم يتساءلون.. هذا لو وجدوا الضحايا.

ظلَّ يسير حتى وجدهم.. الثلاثة الآخرون.. الصبية والمراهقة..

كانوا يقفون وسط الحشود يشاهدون عرض المهرِّج الذي أتى بعد انتهاء فقرة الأسود..

ميز نسرين ووقف يتابعها بعينيه، لقد تظاهَر كثيرًا بأنه تمثال.. لكن نظرتها إليه.. كأنها قد عرفت الحقيقة حتى ولو لوهلة من الزمن..

نظر للمهرج وهو يقدِّم عرضه بينما الجميع يضحك.. ثم عاد ينظر إلى نسرين..

وعندما انتهى اليوم وخرج ثلاثتهم من الكرنفال، لم يعلموا أن شبح الأوبرا قد ترك متحف الشمع وخرج وراءهم.. متابعًا إياهم حتى وصلوا لبيوتهم..

وبينما نسرين تغطُّ بالنوم في فراشها كان هو يقف في الشارع أسفل القمر المكتمل..

ينظر.. وينتظر...

***

الفصل السادس

عام ١٩٨٨

فتحت نسرين عينيها وقالت بتأفف: تبًا للأرق اللعين

إنها الرابعة صباحًا.. وكل محاولاتها للنوم قد فشلت..

اعتدلت بكسل وتثاءبت، لقد كان يومًا ممتعًا.. حقيقة أن صديقيها الصغار لا يعلمان أن اليوم هو عيد ميلادها لكن هذا لا يهم، تتذكر ضحكاتها وهي تشرح لهما أن اليوم هو الهالوين وأن هذا عيد مرعب، عند الغرب يرتدون فيه أقنعة مرعبة.. وهم مفتتنون تمامًا بالفكرة وتذكروا فيلمًا شاهدوه عن تلك الليلة.. ليلة الهالوين.. لكنها لم تخبرهم أن اليوم أيضًا هو يوم ميلادها، لا أحد يعلم في الواقع أنه يوم مولدها.. تذكَّرت نقاشها مع أكرم عن الأبراج، وكيف ظلَّ في حماسٍ يدافع عن بُرجه - الدلو - بينما ظلَّ قدري يقلِّب في الجريدة بحثًا عن مواصفات برجه هو، كان هذا بسبب مقالٍ مُلحَق مع حظك اليوم عن تفاصيل شخصيات الأبراج، وفي بلدتهم مصدر المعلومات الوحيد هو الجرائد أو التلفاز أو دار المعارف، في النهاية وبينما قدري يقرأ لهم مواصفات برج الحوت هتفت نسرين: ابحث عن القوس.

نظر إليها الصبيان في افتتان لم يفت عليها وقال أكرم: أنتِ برج القوس.. برج ابن بطوطة شخصيًا.

غمغم قدري باهتمام وهو يقلب في الجريدة: كلا، أعتقد أنه برج السندباد.

- هو برج يحب المغامرة والترحال كثيرًا.

- لا تتركينا يا نسرين.

ضحكت الفتاة وقالت متظاهرة بالدلال: سوف أفكر..

ابتسمت الفتاة وهي متربعة فوق فراشها وقالت: برج القوس.

ثم أضافت: تبًا لمَ لا، سوف أحتفل بعيد ميلادي..

وقامت لتتجه للمطبخ وهي تغني بعلو صوتها، غير ملاحظة لشبح الأوبرا الواقف في الشارع بزاوية مائلة من شُرفتها..

أهلها مسافرون كالمعتاد، والدها وزوجته، تلك الحقيرة التي تزوَّجها بعد وفاة والدتها في حادث السيارة الذي لم تفهم نسرين سببه حتى الآن.. هل كان والدها هو المخطئ؟.. أم السائق الآخر؟.. هي فقط تتذكَّر خروجهما سويًا وعودته وحيدًا، خروجهما ضاحكين وعودته وحيدًا وهناك درجة غريبة من السواد تعتلي وجهه وعينيه الذابلتين كأنما أحدهم قد طلاه ليعطيه هذا اللون الجديد، بعدها أدركت هي أن للحزن تأثيرات خارقة وقد لا يكتفي بخنقك فحسب، بإمكانه تغيير لونك أيضًا..

تزوَّج والدها بعد عدة أعوام، لشدة ما كانت تكره زوجته الجديدة بتصنعها ولا مبالاتها.. قسوة الغرباء تلك.. وقررت هي أن والدها هو المخطئ والمسؤول عن وفاة والدتها وأنها لن تسامحه أبدًا..

ولأن زوجته الجديدة من القاهرة فقد كان يسافر معها كثيرًا لقضاء الوقت مع إخوتها وأهلها هناك.. تاركين نسرين وحدها كأنهما قد نسوا أمرها.. وكأنه هو قد نسيها بالأحرى..

لا بأس، سوف تحتفل هي.. أخرجت مكونات الكريم كراميل من الثلاجة،

وبحثت عن الشموع وهي تغني: هيًا أيها الحظ لا تعاثرني..

لقد اخترعت هي تلك الأغنية منذ فترة وأصبحت عادتها أن تدندنها فور ظهور تحدٍّ، وهي تعلم أنها لن تقيم الاحتفال الصغير لنفسها لو لم تجد الشموع، آه ها هم ذا.. لقد وجدتهم.. تضحك وتتمايل بخيلاء مسرحي وهي تُعدّ الكريم كراميل.. هو بديل لطيف عن الكعكة، كما أنها غير مولعة بكعك عيد الميلاد..

ذهبت بعدها لتضع ألبوم «مقدرش» لمحمد منير في جهاز الكاسيت، ثم غيّرته لألبوم «ميال» لدياب، لقد ابتاعتهما فور صدورهما هذا العام.. رقصت مبتسمة مع نفسها وغنت أغنية عيد الميلاد، أغمضت عينيها وتمنت أن ترحل من هنا وتلف العالم.. تمنت الحرية.. والسعادة..

ثم عادت منهكة لفراشها وطعم الكراميل يذوب في فمها..

تنهدت وهي تحاول النوم عندما تذكرت اعتراف قدري بحبه لها ذلك اليوم، هي تعلم أن هذا أمر عادي بالنسبة لسنه الطفولية، لكنها شعرت أنها يجب أن تنهي صداقتها معه وربما أكرم أيضًا.. لكنها تعلم أنها كيان مهم في حياة هذين الصغيرين الآن، والحقيقة أنها اعتادت وجودهما أيضًا، وبشكل ما أصبحا هُمَا مسببات الضحك بالنسبة لها، من النادر أن يجد المرء مسببات ضحك.. ولذا قررت التعامل مع الأمر بدلًا من إنهائه.. حقيقة أنها رفضته بلطف وعقلانية وشدت أذنه لتخبره بعدها أنه لا يزال صغيرًا على مثل هذا الكلام.. لكنها تشعر أنه قد صُدِمَ حقًّا، سوف تتحدث معه مرة ثانية وثالثة حتى يتعقل.. ولكن كيف يتعقل الأطفال؟..

تثاءبت نسرين مرة أخرى وهي تشعر بجفنيها يُثقَلان واستسلمت أخيرًا للنوم، هذا الزائر الهوائي متقلّب المزاج، غير مدركة أن أحد تماثيل متحف الشمع يقف أمام بنايتها ويحدق بنافذتها..

***

مضغ قدري الجيلي كولا وهو جالسٌ في غرفته يلعب الأحجية، صوت والدته وهي تتحدث مع قريبتها مع الهاتف مزعج حقًّا، ضحكاتها تشتته.. لكنه يواصل اللعب..

في هذا التوقيت من تلك الليلة كان أكرم يقلب صفحات قصة جديدة ابتاعها من مصروفه.. عدد جديد للجيب من سلسلة صرخة الرعب، عيناها متسعتان وهو يقرأ بنهمٍ..

وبينما تنسل نسرين للنوم، وقدري وأكرم يمارسان أنشطتهما الليلية، رفع شبح الأوبر رأسه وحدّق بنافذة الفتاة للمرة الأخيرة قبل أن يستدير ليسير مبتعدًا ببطءٍ.. وضباب الشتاء ملتف من حوله حتى لتشعر أنك تنظر للوحة بعنوان «جاك السفاح يهيم في شوارع لندن القديمة»..

هل هو مثل جاك السفاح؟.. لا يعلم.. كل ما يعلمه أن الجزء البشري بداخله قد رحل.. قد مات منذ دهور.. هو شرٌّ خالصٌ الآن.. هو أمير الظلام.. وقد اختار لنفسه قناع شبح الأوبرا لأنه الأنسب له..

في زمنٍ ماضٍ كان له اسم.. وعائلة.. قبل أن يتغير كل شيء..

تأتي تلك اللحظة التي تفقد فيها هويتك، وتصبح بلا وجه.. بلا روح.. بلا شخصية.. ثم يتمكن منك شيء ما، وأنت تائه وسط دربات الحياة، وهذا

الشيء هو الشر.. متى تمكن الشر من شبح الأوبرا؟..

كان هذا منذ أعوام مضت.. عندما كان الناس يقلبونه بأدهم..

ربما تمكَّن منه الشر عندما ركل الكلب للمرة الأولى..

عندما أغمض أدهم عينيه وفتحهما كان يلهث ويتصبب عرقًا وهو يركل الكلب المحتضر أمامه على الرمال..

عندما أغمض أدهم عينيه وفتحهما كان يرقص مع زوجته يوم زفافهما وهو يحتضنها في حب..

عندما أغمض أدهم عينيه وفتحهما كان يجلس في الزنزانة وهو ينزف من رأسه بعدما ظلَّ يضربها في الحائط..

في هذا التوقيت.. قبل التحوُّل لشبح الأوبرا..كان أدهم رجلًا ثلاثينيًا مجتهدًا في عمله.. الجميع يرونه رجلًا لطيفًا ومُسالمًا.. حقيقة أن أدهم يمتلك طبعًا حادًّا قليلًا، ومن الممكن أن نقول إن جملة «احذر غضب الحليم» تنطبق عليه بشدة، لكنه يسيطر ببراعة على نوبات غضبه تلك منذ زواجه.. يا إلهي لشدة ما يحب زوجته.. لقد بدأ كل شيء وهو في الثامنة من عمره، يعود من المدرسة ويسير في الطريق وحيدًا، أدهم لم يمتلك الصفات الأساسية التي تجذب المتنمرون، مثل العوينات، النحافة الشديدة أو البدانة.. كان ببساطة مجرد فتى آخر في المدرسة.. كان يسير متعجلًا لأن جدته تُعِدّ له فطيرة الشيكولاتة التي يعشقها اليوم.. هنا انقضَّ كلبٌ على أدهم ليقطع حبل أفكاره، يتعثر الفتى ويسقط أرضًا.. كلب هزيل أعرج يبغي اللعب فيما يبدو.. تأوَّه أدهم في ألمٍ ورفع يده من على القش.. هناك جرح

في يده.. والدته دومًا تحذّره من جرح يده وتعده أن (التيتانوس) سيفتك به لو جرحها.. استشاط أدهم غضبًا وهبَّ واقفًا، وتخيل للحظة نفسه قعيد الفراش لأشهر طويلة بسبب هذا الكلب اللعين، لن يأكل فطيرة الشيكولاتة بسبب هذا الكلب الشيطاني.. احمرَّ وجهه وتطاير اللعاب من فمه وهو يزمجر وقد ضاعفت تلك الفكرة من غضبه، قبل أن يركل الكلب، لا يعلم متى ولا كيف لكنه وجد نفسه يقف فوق الكلب ويغوص بقدمه في معدته، بينما ساقه الأخرى تهوي فوق عنقه ورأسه مرارًا وتكرارًا بكل قوة.. ظلَّ أدهم يركل الكلب مهشم العظام وهو يرغي ويزبد.. يزمجر ويصيح كل حين وآخر.. وجهه شديد الاحمرار.. يبصق الكلب دمًا وينتفض، لكنه فقدَ قدرته على الحركة تمامًا.. يركل أدهم الكلب المحتضر حتى الموت.. ثم يعود للبيت، إنه الخميس.. ميعاد زيارة جدته الأسبوعية.. يلتفون حول المائدة ويأكلوا أخيرًا بعدما تنتهي نوبة توبيخ والدته على الجرح في يده، وتطهيرها له.. في المساء تجلس والدته جوار والده يستمعان للراديو.. هناك لقاء إذاعي مع الممثلة الصاعدة فاتن حمامة، وتصر والدته في حماس أن تلك الممثلة ستكون نجمة الجيل.. أخته تقرأ جوابًا مرسلًا لها في غرفتها وهي مبتسمة.. يلمحها ويشعر بالغضب لسبب ما إزاء ابتسامتها تلك.. لماذا تبتسم على هذا النحو؟ أحيانًا تثير الفتيات غضبه حقًّا.. يذهب أدهم لغرفته.

- لقد قتلت كلبًا اليوم..

.. كان يتحدث مع برعي.. صديق مخيلته الأبدي.. من الغريب أن يكون صديق مخيلتك هو الشيطان لكن هكذا هو الأمر مع أدهم.. لطالما تخيل الطفل صديقه الوهمي على شكل شيطان أسود اللون أحمر العينين ذي قرون

وعصا ثلاثية مثل يوسف وهبي في فيلم سفير جهنم.. قال برعي لأدهم: أتشعر بسوء بسبب ما حدث للكلب؟..

- كلا.. آه لا أعلم.. ربما..

مرت الأعوام وكبر أدهم وأتى يوم احتضانه لزوجته للمرة الأولى.. زميلته في العمل التي قابلها بعد التخرج ووقع في غرامها على الفور، كان من الغريب رؤيته لفتاة تعمل.. لكنه اعتادها..وأحبّها.. دامت قصة حبهما لأعوام، وبدأت مرحلة الخطوبة.. صراع الأهالي العتيد، حقل الألغام الذي يحاول العروسان عبوره بسلام.. وعندما احتضنها وهمس لها: أحبك، نظرت هي إليه في حُبٍّ واحتضنته بقوة.

- لا بُدَّ أن تكتب قائمة.

قالها له والدها مبتسمًا في ودٍّ قبل أن يكمل: هذا هو الشرع..

لوهلة أراد أدهم أن يقول لحماه أن هذا هراء، وعليه أن يكف عن ادعاءاته تلك، لا يوجد شرع يطالب بالقائمة اللعينة تلك.. تلك مجرد عادات مجتمعية جاءت في صالحك أيها الكهل المتظاهر بالتدين.. لكنه آثر الصمت وابتسم في تكلف، هو يحبها بشدة، منذ وفاة والده وهو يتكفل بوالدته وأخته.. وبعد الإعفاء من الجيش أتاه التكليف الوظيفي والتحق بوظيفة أخرى مسائية ليوفر لهم المال.. عائلة أدهم دومًا على حافه مشارف الطبقة المتوسطة ومهددين بالسقوط للطبقة الأدنى.. لكنه بشكلٍ ما استطاع القتال والنجاة بهم.. لقد كان يحارب الفقر أو التهديد بأن يكونوا فقراء منذ أن أضحى مراهقًا.. لكن وظيفته الحالية تعوضه عن كل شيء.. الأموال تُدَرّ عليه

Telegram:@mbooks90

بغزارة... كان يمتلك مخيلة حادة، ولعل هذا يعود لليالي التي قضاها في منزله يستمع لقصص الأدب الإنجليزي على الراديو، كان يخاف بشدة ويهيم حبًا بقصة شبح الأوبرا، يتذكر أول مرة سمع قصة جاك وشجرة الفاصوليا وارتعاده مع صوت العملاق المنبعث من الراديو: في فاي فو فوم! أشم رائحة دم رجل إنجليزي: سواء كان حيًا أم ميتًا سأطحن عظامه لصنع الخبز.

كان يتخيل العملاق على هيئة غول ويتمنى أن يجد جاك الصغير ويفتك به، بعدما انتهت حكاية جاك أتت حكاية شبح الأوبرا واستحوذت عليه، كأنه كان يعلم أن هذا هو قدرُه كرجلٍ بالغٍ، أن يتحول من هذا الطفل الصغير إلى البعبع، إلى الهول، إلى شبح الأوبرا الذي سيقتل، ويدمر، وينشر الظلام.

..يبتسم أدهم أحيانًا وهو يتذكر ليالي الراديو تلك.. أفاق من أفكاره على صوت حماه فنظر إليه في صمتٍ وتذكر دموع والدته وهي ترجوه ألا يكتب قائمة..

- أرجوك يا ولدي.. ستظل تحت رحمتهم للأبد.. كأنك تكتب لهم وصل أمانة بكل ما تملك..

لكنه قرر المضي في الأمر، هذا ما يفعله الجميع في نهاية الأمر.. ووقع أدهم على القائمة.. وقام حماه بعدها في حماس بأخذ رقمه القومي ونسخ بطاقته ليضعها مع ورق القائمة وابتسم له في مودة، وظلَّ أدهم ينظر إليه في صمت..

وبمعجزة ما أتى اليوم الذي حلم به أدهم وانتظره لأعوام.. يوم الزفاف.. بعد كل الصراعات من أجل الشقة والأثاث المنزلي والزيارات والهدايا وكل

تلك الملحمة القادرة على ترويع هوميروس نفسه، أتى يوم الزفاف..

وبعد شهور أتى اليوم إياه.. عندما رفع الطبيب رأسه لأدهم وقال بعملية: وفي النهاية النتيجة لكل ما شرحته إليك هو أنك غير قادر على الإنجاب..

هكذا، وبكل بساطة.. يقولها له الطبيب ثم يذهب لموعد غداء وينسى أمرَه تمامًا.. يخرج أدهم من العيادة شاردًا.. والآن عليه أن يخبرها أنها لن تنجب أبدًا..

الأحداث التي تلت ذلك كانت سريعة للغاية.. وقاسية بشدة..

رحيلها، مقاطعة والدتها له.. ومكالمة والدها له.. وإخباره بنيتها لطلب الطلاق.. علينا أن نفهم شيئًا جيدًا يفسر لنا ما فعلته به شريكة عمره، بعد فتره من زواجهم اختفت رومانسيتها تمامًا، بشكل ما كان يؤمن هو أن زياراتها المستمرة لوالدتها هي السبب، لقد تبدلت زوجته وأضحت امرأة شديدة العملية تبحث عن المال والبنون فحسب، وقد أخافه هذا بشدة في بادئ الأمر وظلَّ يأمل تغييرًا إيجابيًا دون فائدة..

أخته كانت على وشك الزواج في هذا التوقيت، ولكن مكالمة حماه تلك عطلت كل شيء، تجاهلهم أدهم.. قرر أنهم بحاجة لوقت فحسب كي يعودوا لصوابهم.. وقضى لياليه وحيدًا يحاول استيعاب ما يحدث.. إلى أن أتاه الشاويش بالمحضر وجواب الأفوكاتو..

هناك قضية باسمه، وهو يعلم أن قريبهم مستشار، يريدون أخذ كل ما يملك، وهذا يتضمن الشبكة لا الأثاث فحسب، ويريدون كل هذا كتسوية مالية، إنه مبلغ مخيف لن يستطيع أدهم جمعه أبدًا! هل كانت كتابته لقائمة

المتاع السبب أم قريبهم المستشار ووسع حيلتهم؟ لا يتذكر، يتذكر أنه فجأة وجد نفسه في السجن، الفكرة كانت تبدو بعيدة للغاية عنه خصوصًا بعدَما ظل مُحامِيهِ يُطمئنُهُ، أين ذلك الوغد الواثق الآن؟!

كان يتوقع دومًا أن ينتهي الصراع بتسويةٍ ما، لن تسجنه زوجته بالتأكيد.. لن تدمر حياته من أجل المال..

- لن تدمر حياتي من أجل المال..

قالها وهو يجلس القرفصاء في الزنزانة، زيجة أخته فشلت بسببه، لن يتزوج أحدٌ فتاةً أخيها في السجن.. ليس أحدًا هم يبغونه على أي حال، والدته أصابتها نوبة قلبية وظلت حبيسة غرفتها كما قالت له أخته المنهارة.. والدته تحتضر ببطءٍ بسببه وهو يعلم هذا، يتذكر دموعها وهي ترجوه ألا يكتب القائمة.. ويتذكر شفتي زوجته وهي تهمس له: أحبك.

ستة أعوام، هذا هو الحكم.. ستة أعوام في السجن..

يظل ساهرًا يفكر، غير قادر على النوم.. أحيانًا يضرب رأسه في الحائط محاولًا فقدان الوعي.. كل ما يبغيه هو القليل من النوم وينتهي به الأمر الجلوس ساهرًا في الزنزانة برأس مبلل بالدماء.. السجن كان يبدو دومًا كفكرة بعيدة تحدث للآخرين فحسب.. هو لا يزال غير مصدق أن هذا قد حدثَ له هو، حتى وهم يتحرشون به ويضربونه في السجن.. وهم يسخرون منه..

بدأ يرى صديق طفولته التخيلي مرة أخرى - برعي - ولكن ليس كثيرًا، يظهر له أحيانًا ثم يختفي.. ظهر له بعد أول علقة تلقاها داخل الزنزانة.. يبكي

أدهم ويصرخ مناديًا برعي راجيًا إياه ألا يتركه وحيدًا..

ثم أتت اللحظة التي أوسعه مجموعة من الأشداء في السجن ضربًا حتى كسروا ذراعه وساقه ثم اعتدوا عليه دون سببٍ.. لقد نجا منهم -المتنمرين - في المدرسة ولكن ليس الآن فيما يبدو..

في السنة الرابعة توقف أدهم عن الحديث، لم ينبس بحرف من ذات الحين.. ومضت السنين كالجحيم.. كان شابًا متحمسًا للحياة، يخطط من أجل مستقبله ويمتلك زوجة جميلة.. أقصى مشاكله كانت ألا يتأخر عن وظيفته الرائعة التي حارب من أجلها، وفجأة تغيّر كل شيء.. كمشاهدة أحد الجماهير المتحمس لمصارعة ثيران وقد وجد نفسه فجأة داخل الحلبة مرتديًا الأحمر.. لقد خدعته الحياة بقسوة متناهية.. وبمعجزة ما مرت الأعوام الستة.. وخرج أدهم بعدها.. والدته توفت، وأخته تعيش مع خالهم.. طليقته تزوجت - بأمواله في الأغلب - وأنجبت طفلين.. تزوجت من مهندس كانت تعرفه إبان خطوبتهما وأكدت له دومًا أنه مجرد معارف أحدهم ليس أكثر..

ظلَّ يسير ويهيم كالمتشردين.. حتى قادته قدماه لأطراف المدينة.. وهناك على ضوء القمر رآه.. أجفل في البداية.. عندما ظهر له الوجه الضاحك المطلي بالأبيض.. وعلى ضوء القمر أدرك أنه يقف أمام مُهرِّج في العراء، مهرج يضحك بصوتٍ عالٍ بعدما ظل يُظهر له ويختفي كأنه يلعب معه الغميضة، ثم تدحرج على الزرع بعدها ووقف على قدميه.. قبل أن يهب واقفًا وينظر لأدهم.. أهو يحلم؟.. أم إنه.. آه يفهم الآن.. يفهم عندما يرى الخيمة الكبيرة من على بُعدٍ.. هذا سيرك متنقل.. يغمز له المهرج ويشير إليه

أن يتبعه..

والتحق بالعمل كمسؤول نظافة في السيرك، كانوا يعتقدون أنه أخرس.. ولم يعلم أحدٌ قِصَّتَه..

ثم أتت تلك الليلة، عندما زار السيرك المتنقل الإسكندرية.. وكان يسير أدهم هائمًا جوار البحر في وقتِ استراحته، الليل يجثم على كل صوب.. ثم رآها.. باخرة.. تبحر وسط الضباب في البحر.. ظلَّ يحدق بالباخرة.. وشعر بالبلل يعتلي جسده، سبح.. سبح نحوها كالمنوَّم مغناطيسيًا.. ويشعر أنه يعوم للما لا نهاية.. وأنها تبتعد عنه كلما اقترب منها.. لكنه وصل وصعد على متنها.. باخرة قديمة منذ مئات الأعوام.. وعلى متنها رأى الأهوال.. رأى ما لن يصدقه أحدٌ أبدًا، وعندما عاد للشاطئ كان يتنفس بصعوبة، لكنه شعر أنه قد مرَّ بالمرحلة الأخيرة من التحول.. لقد جذبت طاقة الشر بداخله تلك الباخرة إليه، هل كان يتخيلها؟ مثل برعي؟ هل الأهوال التي رآها على متن الباخرة انعكاش لما يدور في عقله؟.. لا يعلم.. لكنه يرى برعي دومًا الآن بعد عودته للشاطئ، بعينيه المتوهجتين وقرونه، يقف شبح الأوبر بعدما عاد للشاطئ منتصب القامة ويسير بقوة ليرتدي زِيَّه الجديد الذي فصَّله خصيصًا لنفسه.. ويذهب لزيارة زوجته..

***

الفصل السابع

حكاية شبح الأوبرا تستمر..

فتحت طليقته عينيها ببطء واعتدلت من رقدتها.. هذا البلل على الفراش، قطبت جبينها واستدارت لتنظر جوارها، الظلام يخيم على الغرفة وهي تكاد لا ترى شيئًا، لكنَّ هناك هاجسًا ما أيقظها.. ما سر هذا البلل على الفراش؟.. مدت يدها تحسس الملاءة وأمسكت يد زوجها.. وجدت نفسها تبتسم في حنان لملمس يده، وسرعان ما تلاشت ابتسامتها عندما سحبت يدها لتجد اليد المقطوعة مستقرة على ساعدها.. صرخت، وقفزت فقط لتنزلق قدميها على الأرضية الغارقة في الدماء وتسقط أرضًا.. تزحف على الأرض، تصل لقابس النور.. تنظر وراءها بعدما آلمت الإضاءة عينيها بقوة وتصرخ.. هذا ليس زوجها هذا ما تبقَّى منه، لقد مزَّقه أحدهم إربًا، تستدير في هلعٍ وتخرج من الغرفة متجهة لغرفة أطفالها وهي تصرخ: أرجوكم كونوا بخير.

تفتح غرفتهم ويغشى عليها، تدور بها الدنيا قبل أن يسود الظلام.. وأمام جسدها الفاقد للوعي تستقر رؤوس أطفالها على منضدة طعامهم الصغيرة، بينما أجسادهم لا تزال في الفراش تحت الأغطية، ووراء جسدها يقف شبح الأوبرا، عاري الجذع.. مرتديًا القناع إياه.

***

بعدما انتهى قدري من لعبة الأحجية وقف ينظر من نافذته، لقد ظلَّ يلعب محاولًا التماشك، محاولًا ألا يفكر في رفض نسرين له.. لا يريد أن يبكي، ويتمنى لو رحل عنه هذا الألم الممضي في صدره..

يريد أي شيء ليشتته..

هنا رأى الرجل فارع القامة ذا العباءة السوداء والقناع، يسير في الشارع، غمغم قدري: يا إلهي.. شبح الأوبرا قد خرج من المتحف!

يتمنى لو يستطيع الاتصال بأكرم أو نسرين ليخبرهم.. نسرين.. تبًا..

ينفض رأسه وهو يحدق بذهول في الرجل.. يسير الشبح بهدوء ويغمغم قدري: سوف أتتبعه.

كان قد فعلها من قبل، الانسلال من المنزل دون عِلم والدته، لكنه لم يفعلها أبدًا في مثل هذا التوقيت من الليل..

يخرج قدري ويغلق الباب خلفه بحرصٍ قبل أن يعدو على السلالم كالبالون، متحاشيًا أن تُحدِث قدميه أي صوت وهو يدعو ألا يستيقظ أحد السكان.. سيرونه ويعتقدون أنه قرر الهرب من بيته أخيرًا، آه قدري الصغير يهرب.. لا بُدَّ أن والدته تسيء معاملته.. هذا ما سيقولونه وهم يضربون كفًّا على كفٍ، لن يصدق أحدٌ أنه ذهب ليطارد شبح الأوبرا بدافع الفضول.. يغمغم قدري لهم: تبًا لكم!

يصل للشارع، يتلفت حوله كالمحموم.

- هيًا هيًا، لا تقل لي إني قد أضَعتك.. آه ها أنت ذا.

يلمحه فيسير وراءه، ليجد نفسه عائدًا للسيرك الذي دخله الشبح من فتحة في السور..

يقف قدري أمام الفتحة في ذهول ويفكر: كيف لم نرَك من قبل؟

وينحني ليدخل هو الآخر..

الكرنفال - مزيج السيرك والملاهي - يبدو مرعبًا في الليل وهو خالٍ تمامًا من الزوار، هذا ما يدركه قدري بينما قلبه الصغير ينتفض.. يتلفت حوله فلا يجد الشبح، يشعر برغبة عارمة في الرحيل.. كأنما كل الألعاب الخالية تحدق به الآن.. لكنَّ فضوله هو سيد اللعبة الآن..

يبحث قدري عن متحف الشمع حتى يجده، يدلف الفتى زاحفًا على معدته في الظلام وهو يأمل ألا يراه الشبح لو كان حقًّا قد عاد للمتحف..

يتسمر قدري مكانه عندما يرى التماثيل تحدق به وسط الظلام وتتسارع دقات قلبه، ثم يتحرك الشبح بعباءته العملاقة، يعضّ قدري شفتيه كي لا يصرخ، وتتسارع دقات قلبه ليكاد يسمعها ويأمل ألا يسمعها الشبح..

يحاول قدري الزحف للوراء، ليرحل عن هنا، سيكدر نفسه فيما بعد على سبب مجيئه وحماقته، الآن ليرحل فحسب..

لكنه جامد في مكانه.. كأن هناك قوى خفية تبقيه.. يحرك عينيه وهو يتابع شبح الأوبرا الذي ذهب لركن ما وأخرج منه صندوقًا ضخمًا.. كلا هذا ليس صندوقًا، هذا تابوت، كأحد التوابيت المزيفة من بيت الرعب.. يجد قدري نفسه يتحرك وقد أدرك الخطر المحدق به، هو في مكان مكشوف بعد كل ولا يحميه سوى الظلام ولن يكشف أمره سوى ضوء القمر..

يختبئ الفتى وراء تمثال الجزار ذي الساطور.. ويشعر بعينيّ راعي البقر الضاحكتين تنظران إليه.. يحيد بنظره عنهم وهو يتصبب عرقًا..

هنا يفتح الشبح التابوت ويخرج منه امرأة مقيدة اليدين ومكممة الفم،

نائمة.. كلا فاقدة الوعي كما بدا لقدري..

فتحت زوجة أدهم عينيها بإرهاقٍ وانساب وعيها إليها بشكلٍ مؤلمٍ.. اعتدلت في فزعٍ وأجهشت في البكاء، تلفتت حولها.. أمامها يقف طليقها في رداء مرعب.. وهناك تماثيل شمع من حولها في كل صوب.. وهي راقدة داخل تابوت.. هي في الجحيم، يا إلهي هي في الجحيم.. بدأ يتقدم إليها ببطءٍ كأنه يعطيها فرصة أخيرة للهرب.. تجري هي.. تبكي وتلهث.. همسات التماثيل من حولها تتزايد في أذنها مع رعبها وهي تصطدم بهم.. همسات ماجنة تكاد تصيبها بالجنون، تضع كلتا يديها على رأسها وتصرخ، تنظر للقمر وتتعالى صرختها... العرق يتزايد على جسدها، تلتفت وراءها قبل أن تواصل العَدو.. قدماها الحافيتان تقفزان عن الأرض بضراوة، وهو يتبعها في صمت.. فارع القامة، متين البنيان، عريض المنكبين، عاري الجذع، يرتدي قناعًا أسود كأنه جلَّاد الموت، وفي يده خنجر طويل وحاد، ذات الخنجر الذي قتلَ به أولادها... تتوقف وهي تلهث، تلمح قدري الذي تتسع عيناه في رعب لمرآها لكنها تعتقد أنه أحد التماثيل وتواصل الهرب لتخرج من المتحف وتتلفت حولها في رعب محاولة تبيُّن أين هي؟.. يسير الشبح بهدوء تجاها كأنه يمتلك كل الوقت في العالم، الأشجار الصناعية تتراص من خلفها وأمامها بحيرة صناعية صغيرة قاعها من البلاستيك.. يقترب هو.. وراء البحيرة يستقر كوخ صغير.. كوخ العرافة.. هو يقترب.. تسمع صوت قدميه، يرتجف جسدها وتنتابه قشعريرة قوية.. لا تزال هي تقف مترددة وهي تنظر للبحيرة والكوخ.. يخرج هو من بين الأشجار ويقبض بيده على شعرها، تصرخ وتنتفض قبل أن تدفع بجسدها للأمام بعيدًا عنه تاركة جزءًا من شعرها في

يده.. تجري وتقفز في البحيرة وتعوم بقوة، يقفز هو في البحيرة وراءها.. تدفع هي بساقيها وذراعيها بقوة للأمام وتصرخ لتبتلع بعضًا من المياه.. تتخيل هي جثثًا متحللة وهياكل عظمية بابتساماتهم الماجنة مستقرين في قاع البحيرة.. ينظرون إليها جميعًا وهي تواصل العوم.. تصل للناحية الأخرى وتخرج من البحيرة.. تعدو باتجاه الكوخ، تسمعه وراءها.. تقف أمام باب الكوخ وتطرق عليه بيديها متوسلة أيًا كان مَن بالداخل أن يفتح لها، ولكن لا مجيب سوى الصمت.. يسير في اتجاها، الخنجر في يده.. تنكمش على نفسها وهي تواصل طَرق الباب وتبكي..

- أرجووووكم ساعدوني..

يقترب أكثر، تتراجع هي للخلف، وتندفع للأمام لتضرب الباب بكتفها، مرة والثانية والثالثة.. الباب لا يتزحزح.. وهو يقترب فتكاد تشمُّ رائحته، تصرخ.. يقبض عليها بقبضته من شعرها ويجذبها للخلف بقوة ليجرها على الأرض عودةً لمتحف الشمع متجاهلًا صرخاتها وتوسلاتها.. قدري يبكي وهو يراقب ما يحدث وقد شلَّه الرعب.. يرميها أرضًا داخل المتحف.. تهب واقفة وهي تبكي قبل أن يعلو صدرها ويهبط بقوة بينما عيناها ترتكزان عليه.. يذهب ويفتح شوالًا أسود ضخمًا يحتوي على البقايا الآدمية للفتى الذي زار المتحف كأنه يريها عمله الجديد وما تحوَّل إليه، ولكن الفتاة ليست داخل الشوال.. تتسع عيناها وهي ترمق ما يريها إياه هو في فخرٍ.. دماء جافة.. ذراع مقطوع، ورأس بشري لشخص مشوَّه.. رأس الفتى بعدما سلخ الشبح جلد وجهه.. تضع يديها على وجهها وتغمض عينيها.. ومن حولها تتراص تماثيل الشمع في كل الأرجاء، ينظرون إليها ويضحكون.. تسير بينهم

مترنحة.. شموع تضيء المكان في كل صوب.. متى أضاء الشموع؟.. يندفع نحوها كالإعصار فتسقط هي للخلف.. يسير تجاهها.. ترفع يديها تجاهه وتتوسل لمن كان زوجها، لمن كان حنونًا وذا شخصية حالمة: أرجوك..

يجرها الشبح بعنف.. يرتج جسد قدري وهو يشاهد ما يحدث.. يقيد الغول.. الشبح.. يقيد المرأة أمام عيني الصغير على المقصلة بعدما تخلّص من التمثال.. تبكي المرأة وتتوسل.. ويبدو لقدري أن شبح الأوبرا هو الجلاد في تلك اللحظة وهو يقبض على الحبل ويشده بعنف استعدادًا كي يتركه ليهوي النصل الحديدي الذي سيفصل رأس المرأة عن جسدها.. هل ستكون هناك دماء؟.. هل سيتدحرج الرأس بعيدًا؟.. ما الذي سيحدث للجسد ؟.. تتلاحم الأسئلة داخل رأس الصغير.. هل المقصلة حقيقية وليست من شمع؟.. سيعرف الآن.. يحاول قدري ألا ينظر دون فائدة كأن شيئًا ما يجبره على المشاهدة.. تتوسل المرأة.. يصفعها الرجل بقوة قبل أن يضربها بالخنجر على وجهها وتختلط ملامحها الباكية بالدماء.. هنا يشهق قدري.. ثم يضع يده على فمه، يتصلب ذراع الشبح كأنه قد سمع الشهقة، يشعر قدري أن قلبه قد توقف عن الخفقان للحظة.. تتحرك رأس الشبح وتنظر في الأرجاء، يهوي قلب قدري بين قدميه.. دقات قلبه طبول تدق الآن.. يبدو إليه للحظة أنه ينظر إليه.. لكنه يعدو وينظر للمرأة ثم يترك الحبل بغتة.. تتسع عينا قدري وعلى انعكاسهم تهوي المقصلة على عنق المرأة العاري، وتنفصل رأسها عن جسدها بسرعة خرافية، أنهار من الدماء تتدفق خارج جسدها.. ويطير الرأس بعيدًا، يتذكر قدري والده عندما قتل برصًا في منزلهم، وكيف أن ذيل البرص طار بعيدًا في تلك اللحظة بسرعة تفوق قدرة البشر.. انفصل عن جسد الكائن

وتحرَّر ليطير.. هذا ما حدثَ الآن.. لقد تحرَّر رأس المرأة أخيرًا وحلَّق مبتعدًا، لم يعد قدري يشعر بساقيه.. ولم يستطع البحث بعينيه عن مرقد الرأس..

يحمل البعبع جسدها ويضعه جانبًا وعيني قدري تتابعانه برعب.. يذكره الآن بمسخ فرانكنتشاين في الأفلام الأبيض والأسود.. المسخ يحمل عروسته.. إلا أن عروسته دون رأس..

يضع جسدها أرضًا، ويمزقه إربًا.. بعدما ينتهي يجلس بهدوء ينظر إلى بقايا الأجزاء البشرية الماثلة أمامه، ثم ينظر بطرف عينه لبرعي.. الذي ظل يبادله النظرات في صمت..

يغمغم قدري في ذُعرٍ: البعبع.

يشعر أنه يريد الصراخ.. يريد الهرب.. لكن ماذا لو رآه البعبع؟..

يستند بيده على شيء ناعم رطب في الظلام.

***

ولكن الفتاة ليست في الشوال..

***

يجفل قدري وينظر ليتبين ما يجلس فوقه ليجد أنه جسد فتاة مقطوعة الرأس، ترتدي نفس ملابس الفتاة التي زارت المتحف مع صديقها.. هنا ينهار منطق الخوف ويصرخ قدري، يصرخ بلا هوادة ودون توقُّف..

يصرخ وهو يعدو مبتعدًا..

يتخيل المسخ الصامت يعدو وراءه فيزيد من سرعته..

يتخيل القاتل الصامت ذا القناع يسير وراءه بهدوء وثقة.. يتعثر قدري ويسقط أرضًا باكيًا قبل أن يعتدل بسرعة ويواصل العدو.. يحاول تذكُّر مكان الفتحة، ينسل من السور.. يعدو في شوارع المدينة.. يسقط مرة أخرى.. يصل لبيته.. يرن جرس الشقة بلا توقف، هو لا يريد سوى حضن والدته الآن..

تفتح المرأة المذعورة الباب ويخرج الجيران من شققهم على صراخه، يرتمي قدري في حضنها ويكرر مستغيثًا: «البعبع قادم يا أمي.. البعبع قادم من أجلي.. من أجلنا جميعًا.»

***

وعندئذٍ قررت كواييس العالم بأجمعه الإقامة في عقل قدري، فأتت ضاحكة وماجنة وهي تحمل أمتعتها، ولم يستطع الفتى الصغير مقاومتها.

هناك كابوس ظلَّ يتكرر معه كلَّ ليلة لأشهر..

في الكابوس يقف البعبع داخل ردهة بيتهم، والد قدري ليس موجودًا.. والدته فحسب.. وهو يراقب ما يحدث مثلما فعل في متحف الشمع، يهوي البعبع بالخنجر على معدة والدة قدري ويغزره قبل أن يحركه يسارًا بقوة وهي تصرخ..

يمزق جدار معدتها بعنف، تسيل دماؤها بغزارة وهي تصرخ، تجحظ عيناها بقوة ويظل جسدها ينتفض لوهلة وهو يمد يده داخل معدتها لينتزع أحشاءها أمام عينيها وهي تشهق في ألمٍ لا يُصدَّق.. تحاول أن تتوسل إليه أن يتوقف.. قبل أن تهمد حركتها تمامًا.. بعدها يلتفت البعبع لقدري.. ويخيل للفتى الباكي أن هناك آخر يقف وراء البعبع، شيطان صغير ذو عينين

حمراوين وجلد أسود.. صديق البعبع.. لكن تلك مخيلة أطفال في نهاية الأمر..

يستيقظ بعدها قدري باكيًا.. ويكرر: هو قادم من أجلنا جميعًا..

***

الفصل الثامن

عام ٢٠٢٠

جلس قدري مع زوجته وأبنائه أمام التلفاز، ابنته المراهقة تجلس وتعبث في هاتفها الخلوي بينما ابنه ذو الأعوام التسعة يتابع فيلمًا يتم عرضه باهتمام شديد، نظر قدري بتحسر على كل الانفجارات على الشاشة قبل أن يقول لابنه: صدقني لا أفهم سر حبك لأفلام «مارفل» تلك، لم لا تشاهد فيلم «سلام يا صاحبي» أو «شمس الزناتي».. تلك هي الأفلام الحقيقية.

- أنت قديم يا والدي العزيز.. تلك الأفلام التي تحبها مملة للغاية.

تنهد قدري واختلس نظرة لابنته وهي تكاد تُدخِل وجهها داخل هاتفها، بينما زوجته تتحدث وتقول شيئًا لا يتبينه، فكّر للحظات أن أولاده يعتقدون - بلا شك - أنه مُمِلٌ وتقليدي ويعود للجيل القديم.. جيل الثمانينيات.. أواخرها للدقة.. حيث تهيمن القناة الأولى والثانية على خيال الجميع.. وتعدك دار المعارف بأسرارٍ من خيالات شعوب أخرى لو أجسرت على الدخول والبحث في مخابئها.. ماذا لو عرف أولاده بمغامراته وهو طفل، هروبه من متحف الشمع ومطاردة المسخ له.. وكيف أنه ملأ الدنيا هرجًا ومَرَجًا بعدها، جاءت الشرطة، ربما لو كان هناك «فيسبوك» حينئذٍ، لكان انتشر الأمر كإشاعة طلاق فاتنة وسط متزوجات، لكن أحدًا لم يصدقه، ظلّ يحدثهم عن البعبع، حتى يومه هذا يلقبه بالبعبع رغم أنه يعلم أن لا أحد ناضج أبدًا سيستخدم مثل هذا اللقب..

كلا لم يصدقه أحد، ذهبت الشرطة ومسحت السيرك بأكمله، أتى أكرم

ونسرين إليه مسرعين، وتجاهلت نسرين نظرات والده قدري المتشككة إليها، هذا عهد لا يعترف بصداقة مختلطة، وتلك بلدة لا تغفر لمثل تلك الصداقات، لكن نسرين لا تبالي، هذا هو سحرها الخاص.. هي ساحرة فاتنة لا تبالي.. وجد نفسه - في عمره تلك - وهو جالس مع عائلته يفكر في نسرين بافتتان وإعجاب.. هي سحر الماضي والمستقبل.. هي الغموض والحماسة.. تنهَّد وهو يتذكر، لم تجد الشرطة شيئًا في السيرك، ولكنَّ هناك أهالي قلقين اختفى أبناؤهم، ظل قدري يؤكد للجميع أن الفتى والفتاة قد لقيا حتفهما ولم يهربا سويًا كما ظن الجميع، لكن الشائعات اللعينة انتصرت عليه، الشائعات التي قالت إن الفتاة المختفية كانت تعاني الاكتئاب، وحاولت الانتحار من قبل، وربما الفتى قد انساق وراءها تلك المرة وهربا سويًا، لم يقل أحد صراحة أنهما انتحرا، كانوا يذكرون فقط محاولة الانتحار في خبث، وصدق الجميع الشائعات ولم يبالوا لما قاله قدري وبحكايته عن المرأة الثالثة والمقصلة، لم يقتنع أحد أنَّ هناك غولًا آدميًا يحيا في متحف الشمع ويمزق الأحياء ويأكلهم، ولم يكن هناك أي أثر لما وصفه قدري.. لم يصدقه سوى نسرين وأكرم، كان يتوقع أن يصدقه صديقه المقرب، ولكنه كان متشككًا في نسرين باعتبارها من أشباه الكبار، لا يعلم لماذا لكنها صدَّقتاه، أو ربما تظاهرت بتصديقه وهي تفكر في قرارة نفسها بملل أنها قد صادقت الفئة العمرية الخاطئة..

لكنها صدَّقته فيما بعد، عندما حدثَ ما حدثَ.. هو واثقٌ من هذا..

تنهَّد قدري.. ثم أجفل عندما سمع صوتًا لفتاة حادة الصوت، تضحك أكثر الضحكات رقاعة وبلاهة، حتى إن أذنيه تصلبتا في رعب، الصوت كان قادمًا

من هاتف ابنته.. مدَّ رأسه ونظر إلى الشاشة، لم تخبئ منه الفتاة الهاتف وهي تنهره، وهذا يعني أنها تشاهد مقاطع فيديو عشوائية على «الإنستجرام» فحسب ولا يوجد أحاديث خاصة في الأمر.. لدهشته وجد أنها تشاهد فيديو لفتى وليس فتاة، يرقص ويغني.. تلاه فيديو لقط أبيض يعض مؤخرة صاحبه.. ضحكت ابنته وهي تشاهد المقاطع وغمغم والدها: لقد مات الإبداع حقًّا..

بعدها وجد ابنته تتابع في اهتمام لا يصدق مقطع فيديو يبث مباشرة لامرأة وصديقها يتحدثان في تفاصيل غريبة مثل طعام صديقها المفضل والطلاء الذي تحب وضعه على وجهها، ذات مرة انتقد ابنته لحبها لهؤلاء المشاهير الذين يقدمون فنًّا عسير الفهم بالنسبة إليه، لماذا أبث مباشرة تفاصيل مثل أني أحب أكل البطيخ بدلًا من التفاح أو أتحدث عن عسر الهضم الذي يأتيني ليلًا لأصبح ثريًا ومشهورًا بعدها؟ لم يفهم هذا قَط.. لكن ابنته أكدت إليه أنهم يجنون الكثير من الأموال لشهرتهم على مواقع مثل «الفيسبوك» و«الإنستجرام».. تنهَّد هو حينئذ وقال:

- أتخيل «فان كوخ» و«ابن سيرين» وهما يناضلان من أجل أفكارهما وفنهما فقط ليجدا ما تطور إليه الأمر في عصرنا هذا، سيموتان بالسكتة الدماغية دون شك.

تتواصل ضحكات الفتاة من هاتف ابنته.. عاد برأسه للخلف، يا للتفاهة القادرة على سحق خلايا أينشتاين الإبداعية نفسه، ولكن لماذا سيدَّعي هو العمق؟.. لقد كانت له تفاهاته أيضًا.. ولكنها لم تتعدَّ فوازير (نيللي) و(فطّوطة) وأفلام (أميتاب باتشان)،..ورغم كل شيء هو يعتقد أن هناك

قيمة فنية في تلك الأشياء، لا توجد قطط تعض المؤخرات على الأقل وفتى يرقع بالصوت.. ضحك قدري فجأة واحتضن ابنه وزوجته فجأة دون داعٍ ليضحكوا، حتى ابنته رفعت رأسها من على هاتفها وبدا أنها تستيقظ من عالمها الإليكتروني.. نظرت إليهم ضاحكة قبل أن تلتقط صورة لهم.. وتذكّر قدري نسرين وكيف أنها تمنت لو كان معها كاميرا ليلتقطوا لها صورة وهي تقف متأنقة في الكرنفال..

***

في هذا الحين، رفع أكرم رأسه وهو يشعر بمذاق الدموع المالح يبلّل لسانه، مسح وجهه.. تبًا للبكاء.. تبًا للضعف.. سيجدهم.. هو يعلم هذا جيدًا في قرارة نفسه.. قال محدثًا تمثال زوجته: لا أعلم أين أنتِ الآن.. ماجي.. صغيرتي.. ماجي.. لشدة ما أحب طعم اسمك على فمي، ستسخرين منّي لو سمعتِني الآن، ولسوف تلقي وابلًا من التهم العاطفية صوبي.. لكني لا أبالي.. لقد انتظرتك كي تتصلي.. بعد هذا اليوم في المتحف، بعدما أعطيتك رقمي.. ثم فجأة حدثَت المعجزة، ورأيت رسالتك على «الواتساب».. لقد كان الأمر ساحرًا، أليس كذلك؟.. محادثاتنا الطويلة، الضحكات والوقت الجيد.. آه الوقت الجيد.. الونس.. لقد تذوقت هذا الشعور معك، لم أعد أشعر أني وحيد..

ثم اعتدل واقفًا ووضع يديه بحنان على وجنتي التمثال قبل أن يكمل: عليكِ أن تفهمي هذا جيدًا، ما أنا على وشك قوله.. طيلة عمري أشعر بالوحدة.. الجميع يروننني بلا شخصية، مجرد شخص عادي لعينٍ آخر.. طيلة عمري أتردد، لم أشعر أبدًا أني شخصية مؤثرة.. آه حتى عندما عاد قدري من

زيارته لمتحف الشمع وحكايته عن المسخ هناك.. تشككتُ في البداية في قرارة نفسي قبل أن أقرر أن أصدقه، حتى في أمر كهذا كنت مترددًا.. كنت أراه يجلس واجمًا في الفصل.. بدا منكسرًا بعد ما حدثَ، مهمومًا، لا يجب على طفلٍ في نهاية المرحلة الابتدائية أن يكون مهمومًا، نظرات الجميع تسخر منه كأنه مجذوب القرية، كان عليَّ أنا حمايته تلك المرة وليس العكس كما هو معتاد، وقد حاولت.. آه صدقيني لقد حاولت.. كنا نجلس سويًا في الفصل نعدّ الدقائق.. حصه تلو الأخرى حتى ينتهي اليوم الدراسي اللعين.. نسير سويًا ونقابل نسرين بعدما تخرّج هي من مبنى طلاب الثانوية، ترتدي قميصها الأبيض والتنورة السوداء، وقد خلعت سترة المدرسة.. حاملة حقيبة كتبها على ظهرها.. آه لا تنظري إلى هكذا.. كنت طفلًا.. لكني أحببتها حقًّا حينئذ.. كانت الحرية ونحن المقيدون.. نحاول القتال من أجلها بكل الطرق.. تأتي نسرين إلينا.. ويسير ثلاثتنا.. الفرسان الثلاثة.. أحدهم فتاة لكن مَن يبالي، قاسم أمين كان ليكون فخورًا بنا في تلك اللحظة.. نسير ونتحدث عن مسخ متحف الشمع.. أسماه قدري بالبعبع.. وسرعان ما التقط لا وعينا الاسم فصار تلقائيًا «البعبع» بالنسبة لنا أيضًا.. نتحدث ونتناقش ونضع مئات الخطط لمواجهته ومحاربته بعدما تخلّى عنّا الكبار واختاروا ألا يصدقونا..

هناك وحش في المدينة، وحالات الاختفاء تتزايَد.. لكنَّ الحمقى لا يدركون.. الشائعات وتحريات الشرطة وتشكُّك أهل البلدة الصغيرة في الغرباء أنهوا دورة حياة السيرك لدينا، رحلَ السيرك المتنقل ومعه متحف الشمع.. لكننا ظللنا مؤمنين أن شبح الأوبرا لم يرحل.. ولسببٍ ما افترضنا أنه قد انتقل للمكان الوحيد الملائم في البلدة كلها، إلى قصر سليمان.. كان هذا

هو المنطق بالنسبة لنا.. البعبع يحيا في قصر سليمان وقد أقام متحف شمع خاصًا به هناك.. آه يا حبيبتي وقد كنا محقين..

احتضن أكرم تمثال زوجته قبل أن ينحني ويلثم يدَ تمثال ابنه ويتابع: أنت الحياة بالنسبة إليّ يا مازن، ومسؤوليتي هي حمايتك وجعلك سعيدًا.. أنت وأمك.. ولسوف أجدكما..

يخرج أكرم بعدها من بيته ويسير في شوارع القاهرة وقت الغسق.. يهيم في الأرجاء كلها، كأنه سيجدهما بتلك الطريقة..

لقد انتقل للقاهرة وهو في الجامعة مع أهله، قدري انتقل قبله، انتقل بعد الفاجعة الأخيرة.. لم يعد له ولا والدته مكان بعد ما حدثَ..

.. يغمض أكرم عينيه وهو يسير محاوِلًا ألا يتذكر..

يحاول أن يفكر في شيءٍ إيجابي، يتذكر أول مرة زار فيها قدري في بيته عند نشأة صداقتهما، شعور الزيارة لمنزل صديقك وأنت طفل، مقابله والده قدري.. الجلوس في رهبة داخل هذا الحرم المقدَّس.. هنا تحيا عائله أخرى.. وعليك التصرف بأدب.. هنا كل ما هو جديد وغريب.. مثل شرائط الفيديو وجهاز التسجيل والأفلام و(الأتاري).. والد أكرم لم يكن ليستطع أبدًا تحمُّل نفقات أشياء كتلك ولو استطاع لما أهدر أمواله عليها.. لكن عائلة صديقه تختلف.. يقدمون له الطعام والفاكهة كأنه السلطان المبجَّل..

يشعر أكرم بالسلام النفسي للحظات وهو يجول في شوارع العاصمة المخيفة إثر تلك الذكرى، وسرعان ما يلتقط السلام النفسي مقتنياته ويقرر أنه في المكان الخطأ فيرحل دون تفسير.

قدماه تؤلمانه من السير..

يريد أن يصرخ باسم زوجته وابنه بعلو صوته، فيتردد صدى الصوت حتى يجيبه أحدهم، يغمغم لنفسه: حاول أن تحتفظ بعقلك يا رجل.

يضحك وهو يتذكر اكتشافه لصدى الصوت وهو صغير، وتكراره للصياح مرارًا وتكرارًا لكي يسمع صداه، لعبة صدى الصوت.. أعتقد أنه اخترع تلك اللعبة، نعم نعم.. لقد اخترعها وسرقها الآخرون منه..

سرقوها منه، فكرته الأصلية.. فكرته هو.. تخصه هو.. سرقوها كما سرقوا ماجي ومازن..

ظلَّ يسير حتى وجد نفسه أمام بوابه قطار الأنفاق، خُيِّلَ إليه أنه رأى أحدًا يدلف إليها، رغم أنها تقارب الخامسة صباحًا الآن، عقد حاجبيه.. ربما يكون هذا هو البعبع.. كان مرهقًا للغاية ومستعدًا كي يستسلم لأي أوهام.. ذهب لبوابة المحطة المغلقة فقط ليجدها مفتوحة.. تلفَّت حوله، وبدأ يفيق من إرهاقه.. ربما يكون قد رأى أحدًا حقًّا.. دخل المحطة، هو الآن في البنية التحتية.. أسفل الأرض..

سار للأمام بهدوء.. وسط ظلمات وفراغ محطة قطار الأنفاق التي ينبض قلبها بالزحام والبشر خلال اليوم، لكنه الليل الآن.. حيث الظلام والوحدة..

يسير أكرم للأمام.. وهو لا يصدّق ما يحدث له، منذ شهورٍ كان مع زوجته وطفله في دفء منزلهم، الآن هو يسير وحيدًا كمتشرد في قلب المحطة الخالية.. هنا رآه.. ظِل رجل يسير بهدوء على القضبان الخالية، ويختفي في ركن بعيد.. رفع أكرم حاجبيه قبل أن يتتبع الرجل الغامض.. يتتبعه لهذا

الجزء المنسي من البنية التحتية، حيث توجد مساحات هائلة وفارغة أسفل الأرض.. مملكة الفئران.. يتنهد أكرم ويسير وسط الظلام قبل أن يراه.. أمام عينيه..

رجل طويل الشعر واللحية.. يجلس القرفصاء بهدوء وسط الظلام.. وجهه شاحب وعيناه سوداوان.. متين البنية وصلب الجسد، بإمكان أكرم تمييز أن الرجل فارع القامة حتى وهو جالس.. لم يبد له كمتشرد جائع، بدا له كرجل مقتدر سليم البنية والصحة.. رجل اختار أن يكون هنا.. نظر أكرم للرجل في شكٍّ، ورفع الأخير رأسه تجاه أكرم..

- أنت تبعتني إلى هنا؟

ظلَّ أكرم صامتًا..

- ماذا تريد؟

- عائلتي.

ظلَّ الرجل صامتًا، قبل أن يشير أكرم لكي يجلس، تلفت أكرم حوله فقال الرجل: اجلس حيثما شئت..

جلس أكرم على الأرض الرطبة وخُيِّلَ إليه بعيون حمراء صغيرة لفئران لكنه عزا هذا إلى مخيلته، لا يوجد رجل يحيا أسفل الأرض في الأنفاق وسط الفئران، هو يتخيل كل هذا.. أعني لا بُدَّ أنه يتخيل أليس كذلك؟ انقطعت أفكاره على صوت الرجل المتسائل:

- ما الذي حدث لعائلتك؟

- هو أخذهم.

بدا الاهتمام في صوت الرجل وهو يقول: مَن؟

- البعبع.

-.....

تنهد أكرم وتابع: سمه ما تشاء.. البعبع.. المسخ.. الشرير.. الشيطان.. السفاح.. كلها ألقاب لذات الكينونة.. للشر.

ظلَّ الرجل صامتًا وهو ينظر لأكرم، ولم يبدُ للأخير أن مضيفه يستغرب ما يسمعه، طبعًا.. رجل يحيا بين الأنفاق لن يجد هذا الخبل غير منطقي.. كذا فكر أكرم قبل أن يضيف وهو يمسك رأسه إثر ألم مباغت انتابه فجأة: أشعر وكأني سأجنّ.. أنا لا أعلم حقًّا إن كنت هنا أم لا.. أنا أقضي الليالي أتحدث مع تماثيل عائلتي.. لقد أخذهم مني.. لقد أخذ.. آه لقد أخذ..

- لقد أخذ بهجتك.

- نعم.

- عليك بالحقيقة.. المعرفة ثمنها باهظ.. لكن عليك أن تفهم وتعرف.. هذا هو السبيل الوحيد كي لا تجن

تفحص أكرم الرجل بعينيه قبل أن يسأله: وأنت قد عرفت وفهمت؟

- نعم.

- ولهذا أنت هنا؟

- نعم.

- زهدت الدنيا بما فيها.

- أحدهم أخذ بهجتي أيضًا، أنا أحيا هنا، لكني أصعد للأعلى كلَّ حينٍ وآخر.. لأتأكد من أن أمثاله لن يفعلوا أفعاله.

- مَن هو؟

- الشر.

- مَن أنت؟

- هل هذا يهم.. كلنا عضضنا التراب.. ولهذا نحن هنا.. عليك أن تقاتل من أجل الحقيقة أيها الغريب.. قاتل وستجدهم..

صمت الرجل بعدها وكأن تلك إشارة لأكرم بالرحيل، وقف الأخير في تردُّد وهمَّ بالرحيل قبل أن يلتفت للرجل..

- ما هو اسمك؟

- حاتم.

رحل أكرم بعدها، تاركًا الرجل الذي عضَّ التراب.. وعائدًا للمدينة..

***

لم يتوقف الهاتف عن الرنين، فتح أكرم عينيه بصعوبة والتقطه.. أتاه صوت قدري..

- اليوم نعود لبلدتنا.

- اليوم نعود.

كان أكرم يعلم أنها رحلة بحث يائسة، احتمالية أن يجدا شبح الأوبرا مع عائلته في قصر سليمان، واهية للغاية.. لكنه لا يمتلك أي خيوط أخرى، تذكّر كلمات رجل الأنفاق الذي لا يعلم إن كان قد قابله في الحلم أو الواقع، والذي سيتهمه قدري بالخبل لو أخبره بشأنه.. قدري هناك رجل يحيا بين الأنفاق.. وهو يعلم الحقيقة.. هز أكرم رأسه وتذكّر كلمات الرجل.. المعرفة ثمنها باهظ.. نظر لتمثال زوجته.. وكرّر: اليوم نعود.

***

الفصل التاسع

انطلقت السيارة بهما، وأسند أكرم رأسه على زجاج النافذة بينما قدري يزيد من سرعتها لتنهب العجلات الأرض نهبًا.. اختلس قدري نظرة لصديقه قبل أن يقول: أنت رجل بالغ على مشارف الأربعينيات لكنك لا تستطيع القيادة.. أنت إحراج للبشرية أيها الأخرق.

تكلف أكرم الابتسام، قدري يتحدث كما لو أنهما قد عادا أطفالًا مرة أخرى، يتحدث بالطريقة المشاكسة إياها، كأنما كلما اقتربا هُما من المدينة كلما تحوَّل قدري أكثر وأكثر لشخصيته الأصلية..

أوقف قدري السيارة فجأة، ضغط المكابل وارتدَّ جسد أكرم، لم يندهش، هو يتوقع أيَّ شيءٍ في حالتهما النفسية تلك، نظر فحسب لأكرم بعينين متسائلتين..

التفت إليه قدري وقال: هناك شرٌّ في تلك المدينة، أنت تعلم هذا جيدًا.. كل شيء تغيَّر في محافظتنا الصغيرة بعدما زارنا السيرك، شيء ما أتى لمدينتنا ونحن أطفال وجلب معه الظلام.. حتى السكان.. تشعر وكأنهم قد تغيروا بعد الأهوال التي حلت عليهم.. أشعر وكأننا عائدون لمدينة أشباح، أشعر وكأن هناك.. آه.. أنا مرهق يا أكرم.. أشعر وكأن هناك...

- خطر..

- نعم.

- قلت لك إني سوف أذهب وحيدًا.

- كلا.

- إذًا؟

- سنذهب سويًا.. لكننا بحاجة كي نكون مستعدين.

بدا الانفعال يظهر في صوت أكرم وهو يهتف: مستعدين؟ زوجتي وابني مختطفان من قِبَل هذا الشيطان.. تبًا.. أنا لا أعلم حقًّا إن كان هو من أخذهم أم لا.. كل دقيقة تمر، تهدر.. وهما في خطر.. وأنت تريد أن نكون مستعدين؟

دمعت عينا قدري قبل أن يقول: أنا خائف..

ثم أخرج هاتفه من جيبه وقال: لقد راسلت مختصًا، شخصًا ضليعًا في مثل تلك الجرائم.. باحثة في الجريمة والماورائيات..

نظر أكرم للرسالة قبل أن يهتف: تلك كاتبة قصص رعب بالله عليك.

- أعلم أعلم.. لكنها خبيرة كما يقولون.. على أي حال لقد راسلتها فحسب وأخبرتها بكل شيء تحت اسم مستعار وهذا كان ردها.

نظر أكرم إلى قدري بشكٍّ قبل أن يقول: اسم مستعار، أنت تمتلك حساباتٍ مزيفة؟

هز قدري رأسه في صمتٍ قبل ان يقول: أنا لست سعيدًا في زواجي مث...

قطع كلامه قبل أن يقول مثلك، وشعر أكرم بسكين قاسٍ يمزق ضلوعه، لكنه تجاهل ما حدث وقرأ رد المختصة على قدري:

أستاذي العزيز،

أنت تحدثت عن شر قديم يكمن في تلك البلدة التي لم تذكر اسمها، لكني

أدركت أي بلدة تتحدث عنها، لأني قد سمعت وبحثت فيما سبق عن جرائم السيرك المتنقل الشهيرة في حقبه الثمانينيات، شهيره بالنسبة لي على الأقل رغم أن القليلين قد صدقوا الأساطير حول الموضوع، كما أني أنتوي زيارة قصر سليمان يومًا ما وإماطة اللثام عما حدثَ هناك منذ عقود عندما هلك سليمان وعائلته، على أي حالٍ، تقول الروايات إن أحدًا لم يعلم مَن هو ممول السيرك.. هذا هراء بالطبع لأن شركة روسية تختص في الاستثمار أعلنت ملكيتها للسيرك، رغم أني وجدته أمرًا مريبًا أن تقوم شركة تحت مظلة الاتحاد السوفيتي - نحن نتحدث عن الثمانينيات بعد كل شيء - بتمويل مشروع رأسمالي كهذا، كان بالأحرى أن تكون شركة أمريكية، اعذر استطرادي واهتمامي.. تلكما عادتان مقيتتان لي لا أستطيع التخلص منهما.. على أي حال.. قبل إعلان الشركة ملكيتها للسيرك ادّعى البعض أن الشيطان نفسه يمول السيرك وأنه ينشر الفساد والعبث.. مرة أخرى لا يجب أن ننفس أن تلك فترة التشدد والجماعات فلا تستبعد ترويجهم هم لتلك الإشاعات.. لكن وسط كل هذا الضباب تحدَّث أحدهم عن رجلٍ ذي وجه مشوَّه يرتدي قناعًا وعباءة سوداء طويلة.. رجل ذي مخالب وأنياب.. اعتقادي الشخصي أنه ركب لنفسه تلك المخالب والأنياب كجزءٍ من الشخصية التي يعتنقها، أنت تزعم - واعذر لقولي «تزعم» أيها الغريب؛ لأن التشكُّك أيضًا عادة مقيتة لدي، ربما أنت تريد تصوير ردي ونشره على حسابك للسخرية مني فحسب، انظروا لما قالته الكاتبة المخبولة - أنك رأيت هذا القاتل الغامض يفتك بضحايا في متحف الشمع.. ويقطعهم إربًا ويأكلهم كالغول.. هل هناك وجود لهذا الرجل؟.. هل هو لا يزال على قيد الحياة؟ وكم عمره الآن؟.. نحن نتحدث عن وقائع مرَّ عليها ثلاثون عامًا بالتقريب، أنا آسفة لخسارتك

وخسارة صديقك، وآسفة لما حدث في صراعكما الأخير مع هذا المسخ، لكنك ذكرت أنه لم ينطق حرفًا وهو يقتل ولم يتحدث سوى مرة واحدة، نعم هذا منطقي.. الشر الحقيقي لا يتحدث، دعك من الأفلام.. المسوخ لا تتحدث ولا تتباهى بأفعالها، فقط الشيطان يتحدث، لو كنت محقة في اعتقادي.. أنتم بصدد مواجهة رجل في أواخر الستينيات.. ولكن كيف يتمكن رجلٌ في هذا العمر - لو كان لا يزال حيًا - من أن يخدِّر صديقك ويختطف عائلته؟.. هناك حلقة مفقودة، عُد إلى المدينة، ابحثوا عنه، ولا تنسَ.. الماورائيات حقيقة.. أنت طلبت رأيي.. وهذا اعتقادي الخاص عن تجربة.

خالص تحياتي

ناردين الصباغ

انتهى أكرم من قراءة الرسالة قبل أن يمط شفتيه في حنق ويهتف: هي تحب الكلام فحسب، بالله عليك، لا توجد عبارة واحدة مفيدة في الرسالة.

نظر إليه قدري طويلًا قبل أن يهز ويغمغم: اقرأها مرة ثانية.

وبعدما فعل أكرم هذا نظر لقدري في عدم فهم.. قال الأخير: رجل في أواخر الستينيات.. كيف يمكنه فعل ذلك وحده يا أكرم؟

احمرَّ وجه أكرم.. ثم لكم قدري بقوة، ارتج رأس الأخير في عنفٍ.. وسالت الدماء من أنفه.. حدث الأمر في ثوانٍ معدودة دون سابق إنذار.. وهتف أكرم وهو ينقض على قدري: أتعتقد أنني اختطفت عائلتي أيها الوغد ابن الزانية؟.. لا تنظر إليَّ بشك هكذا..

احتضن أكرم قدري وتدحرج الاثنان بعنفٍ ليسقطا من باب السيارة الذي

انفتح في دهشة، سقط الاثنان أرضًا.. لكمَ أكرم قدري مرة أخرى فدفعه الأخير بساقيه للخلف، تراجع أكرم للوراء للحظات قبل أن يندفع مرة أخرى نحو قدري الذي كان يحاول الاعتدال من على الأرض.. شهق قدري وقفز للخلف متفاديًا أكرم..

كان الاثنان يتصارعان على الطريق الزراعي.. والسيارة جوارهما.. مرت سيارة مسرعة وسائقها ينظر لهما بدهشه قبل أن يواصل طريقه..

يركل أكرم قدري فيما بين ساقيه فينفخ الأخير الكثير من الهواء وهو يصرخ: «يا ابن العاهرة».

انطلقت قبضة أكرم فتفاداها قدري قبل أن يقفز وهو يصرخ بغضبٍ مقلدًا مقاتلي النينجا في أفلام التلفاز القديمة، وسقط بكل حمله فوق أكرم الذي سقط أسفله وهو يئن ألمٍ، فقط ليعضه قدري في أنفه.. قبل أن يلكمه.. أو يحاول أن يلكمه، لكن اللكمة تحولت لصفعة.. قهقه أكرم وبصقَ قبل أن يصرخ: أنت لا تستطيع حتى أن تلكم أيتها الفتاة الصغيرة.

- تبًا لك.

- تبًا لك أنت أيضًا.

اعتدل الاثنان وجلسا متجاورين بإرهاق على مشارف الحقل، مسح قدري فمه وقال: لا أعلم.. ربما ما حدث لنا ونحن أطفال.. أثر في عقلك.. ما شاهدنا في صراعنا الأخير معه.. ما حدث تلك الليلة.. لقد كنت طفلًا بالله عليك.. ربما أتلفَ ما حدثَ جزءًا ما في عقلك وأصبت بانفصام أو شيء من هذا الهراء.. ربما ترك هو بصمة من روحه داخلك.. لا أعلم يا رجل.

نظر له أكرم بغيظٍ وهو محتقن الوجه قبل أن ينقض عليه مرة وهو يصيح بغضب.. استمر شجارهما لعشر دقائق أخرى قبل أن يصيح قدري: استسلمت، استسلمت أرجوك.

تركه أكرم وهتف قدري بينما العشب يتناثر فوق رأسه: لقد زال أي شك لدي فيك بعد ردة فعلك تلك.

نظر له أكرم وعيناه حمراوان بلون الدم قبل أن يهتف: كيف تشك فيّ؟ أن أفعل مثل هذا بعائلتي؟

ابتلع قدري ريقه ونظر إلى الأرض، شعر بقلبه يخفق.. ثم قال بصوت متهدج والدموع تتراقص على مقلتيه: لا أعلم.. أنا آسف.. أنا حقًّا آسف.. أنا فقط خائف ولا أريد العودة.

ثم حاول احتضان أكرم الذي دفعه بعيدًا وصاح: ابتعد أيها المخنث.

- تبًّا لك.

- تبًّا لك أنت أيضًا.

ثم أردف: اللحظة التي نشك فيها ببعض، هي نهاية كل شيء..

وفي ذات اللحظة تذكَّر كلاهما مشاهدتهما لفيلمٍ ما عن الكونج فو وهما أطفال، عندما قطع «فان دام» مع شريكه عهد الدم، كل منهما جرح نفسه وتبادلا دماءهما قبل أن يهتفا: إخوة للأبد.

وهتفت والدة قدري حانقة حينئذ - وقد كانت تمر بالصدفة في المشاهد المريبة كعادة الأمهات -: تلك أفضل وسيلة لانتقال العدوى يا للحمقى!

بعد انتهاء الفيلم نظر الصبيان لبعضهما البعض قبل أن يهتفا: إخوة للأبد..

والآن بعد ثلاثين عامًا، وهما جالسان بعد عراكهما.. غمغم قدري بشيء ما لم يتبينه أكرم..

- ماذا؟

- إخوة للأبد.

شد أكرم على يده وردد وراء صديقه: إخوة للأبد.

ودون كلمة أخرى وقف الاثنان ودلفا للسيارة ليواصلا إلى رحلتهما..

إلى بلدتهما..

***

الفصل العاشر

عام ١٩٨٨

شعرت نسرين في الحلم كأن هناك عملاقًا يمسك كتفيها ويدفعها دفعًا للأسفل، الأرض تنبثق وتنزلق هي للأعماق.. هي الآن تحبو في ممرٍّ مظلمٍ طويلٍ يؤدي للأسفل، خرجت من الممر وهي تسير بالحركة البطيئة.. وجدت نفسها في غرفتها مرة أخرى ولكن كلا.. تلك ليست غرفتها حقًّا، هذا عالم بديل.. تلك غرفتها في العالم السفلي.. وقفت أمام المرآة ونظرت لنفسها، فقط لتجد انعكاسها يغمز لها ضاحكًا.. تراجعت الفتاة للخلف وصوت انعكاسها يتعالى، ولرعبها وجدَته يخرج من المرآة وتهشمت الأخيرة وهو يفعل هذا، يقف انعكاسها أمامها في صمتٍ.. وتدريجيًا بدأ انعكاسها يتحول لشبح الأوبرا، عيناه تتوهجان بالأحمر.. مخالبه تنمو وأنيابه تستطيل.. عباءته السوداء تقترب منها، جزء من عقلها كان لا يزال قادرًا على التفكير المنطقي في حلمها ، وقد أطلق هذا الجزء سبة وهو يهتف: تبًا لك يا قدري ولحكاياتك المرعبة عن الغيلان، لقد أفسدتَ منامي..

تتراجع الفتاة للخلف وتعتدل ببطءٍ قبل أن تبدأ بالجري، وتشعر بحركتها الثقيلة وهي تعدو.. كأن هناك خدرًا يسري في جسدها..

تواصل الهرب لتجد أنها في متاهة حقيقية، تتلفت حولها في فزع.. هي في متاهة مرايا.. انعكاساتها تنظر إليها، دقات قلبها تتزايد..

تعدو.. تبكي.. تصرخ..

المرايا تتهشم، وكل انعكاساتها تخرج من المرايا.. على شكل الشبح..

تنهار نسرين أرضًا وتضع كلتا يديها على عينيها كأن هذا سيحميها من رؤية الوحوش.. وتصرخ مستغيثة..

تفتح نسرين عينيها بسرعة وهي تلهث.. صدرها يعلو ويهبط.. تغمغم: يا له من كابوس!

كانت تشعر بالانتشاء الناجم عن الاستيقاظ بعد الكوابيس، الشعور المريح أنها في مأمَن الآن والحاجة الملحَة كي تروي ما حلمت به قبل أن تنساه، لأصدقائها..

تستحم نسرين وتعد لنفسها كوبًا من الشاي وهي تفطر ثم ترتدي ملابسها.. هي لا تريد الذهاب للمدرسة اليوم.. أحد امتيازات سفر أهلها أنها تملك قرار الغياب، تنهدت وهي تفكر.. تظل في المنزل تشاهد التلفاز أم تذهب.. كانت تحكم أزرار قميصها الأبيض وهي تفكر قبل أن تأخذ حقيبتها المدرسية التي أعدتها في الليلة السابقة قبل أن تنام، وفتحت الباب لتخرج.. قابلت جارتها التي ابتسمت لها بودٍّ وحيَّتها..

- والدك بالداخل يا نسرين؟

- كلا، لقد ذهب للعمل.

- آه حسنًا، هلا أخبرتِه أن هناك اجتماعًا لاتحاد الملاك غدًا بشأن الصيانة الشهرية.

- حسنًا.

لا تعلم لماذا لكنها تتظاهر أمام الجيران أن عائلتها معها، وأنها لا تعيش وحيدة أغلب الوقت.. غدًا تخبر جارتهم أن والدها قد سافر لظرف عمل طارئ

أو شيء من هذا القبيل..

المدرسة على بُعد شارعين وتلك إحدى مميزات المدينة الصغيرة، بإمكانك أن تسير دومًا لأيّ كان مبتغاك، لو كنت متأخرًا سوف تستقل سيارة أجره بأقل أجرة.. ولكن العُرف ينص ألا تستقل الفتيات سيارات الأجرة وحدهن..

تصل نسرين للمدرسة.. ويمر يومها بطيئًا كالمعتاد، بين نظرات زملائها في الفصل إليها، هذا فتى معجب، والآخر يتحدث مع رفاقه بشأنها في أمور غامضة لا تحب هي تخيُلها.. زميلاتها ينظرن إليها ويتهامسن.. نسرين قد فقدت عقلها وأصبحت في شلة صبيين من الابتدائية هاها.. بإمكانها تخيُل نميمتهم بوضوح تام..

يقف المدرس وهو يتحدث عن قطز وكفاحه ضد المغول.. هي تحب التاريخ، يشعرها بقدر من الحرية.. تتخيل الحقول الخضراء والخيول والفرسان وتشعر بالأريحية..

هي لا تحب مدرس اللغة الفرنسية، يتفحصها دومًا بعينيه، مدرِّسة الجغرافيا لاحظت هذا ذات مرة ونظرت إليه بوحشية قبل أن تقترب من نسرين لتتبادَل الحديث معها وسارت معها وسط ارتباكها واحمرار وجهها، وشعرت نسرين بامتنان أبدي للمدرِّسة.. اسمها كان علا.. وبعد انتهاء اليوم بينما تسير نسرين في الردهة ظهرت علا ونادت عليها..

- أريد الحديث معك يا سنيوريتا.

ابتسمت نسرين للَّقَبِ الذي تناديه «مس علا» به دومًا، وسارت معها.. وهي تتمنى ألا تجلس معها في غرفة المدرسين، ذات مرة جلست معها هناك

للتحدث بشأن خاص وكرهت نظراتهم الفضولية، هنا يجلس جميع المدرسين بعدما تنهار أقنعة الإلقاء في الفصل، يجلسون في استمتاع وأريحية وهم يصححون الامتحانات ويأكلون الشطائر.. لا تشعر نسرين بالارتياح هناك، ولكنها كفَّت عن تلك الأفكار عندما وجدَت نفسها تجلس في الفناء مع علا.. ولم تلاحظ أيٌّ منهما مدرِّس اللغة الفرنسية الذي كان يتابعهما ببصره.. هناك شيء يجب أن نعرفه عن أستاذ عادل.. هو متحرش رسمي.. وقد تم نقله من مدرسة بالقاهرة لأسباب كتلك، لكنه لا يستطيع إخراج نسرين من عقله، والشائعات عن كونها تعيش وحيدة إثر سفر أهلها المتكرر، ومصادقتها للصبية جعلته يدرك أن لديه فرصة معها.. قرر أنها منفتحة، وأنه لا ضير من المحاولة..

وبينما نسرين تجلس تتحدث مع علا في الفناء كان عادل يتابعهما بعينيه..

تقول علا لها: حالات الاختفاء تلك، أعلم أنك على صداقة مع هذا الولد البدين.. قدري، أليس كذلك؟

- نعم، ولا أعتقد أنه يحب وصفه بالبدانة.

قالتها نسرين مبتسمة فاعتذرت علا وقالت: آسفة، لم يكن عليَّ قول هذا، لكني قلقة يا نسرين.. أريد أن أعلم حقًّا ما يحدث..

نسرين تعلم أن المدرسين لا يمتلكون مصدرَ معلوماتٍ حقيقيًّا وسط الطلبة، ولم تحب أن تكون المخبر الخاص بعلا حتى لو كانت نيتها جيدة، وجدت نفسها تفكر بنفس طريقة قدري وأكرم.. لقد أثَّرا فيها حقًّا.. تتابع علا:

- فقط كوني حذرة.. ولو شعرتِ بالخطر.. اتصلي بي فورًا.. أو ربما.. ربما

بإمكانك المجيء وقضاء عدة أيام لحين عودة أهلك.

أجفلت نسرين وحدقت في عيني المدرسة التي تنهدت مضيفة: أعلم أنك تعيشين وحدك، أغلب الوقت على الأقل.. تلك بلدة صغيرة يا نسرين والكل يعلم الكثير عن الكل..

ولم تضف علا أن إدارة المدرسة كلها تعلم أن نسرين تعيش وحدها حتى لا تضايق الفتاة..

ظلت نسرين صامتة لوهلة قبل أن تهز رأسها وكتفيها دون أن تقول شيئًا وهي تحاول أن تقول مبتسمة قبل أن تحارب التهدج في صوتها وتقول: ولكني أحظى بوقت ممتع.. أسير في البيت مرتدية ما أريد، وأرقص وأشاهد التلفاز وكل شيء، لا تقلقي.

ضحكت علا في تعاطُف واحترام لمحاولة نسرين أن تكون قوية، قبل أن تقول: فقط عديني أنك سوف تأتي إليّ لو شعرتِ بقلق..

- أعِدُك.

***

- هذا هراء.

هتف قدري بالعبارة وهو يلوك بالشطيرة في فمه وصاح أكرم: أرجوك لا تصدر مثل تلك الضوضاء وأنت تأكل، هذا يثير أعصابي بحق.

- تبًا لـ...

قاطعتهم نسرين: تبًا لكما أنتما الاثنان.. وهذا ليس هراء.. علا تريد

المساعدة وأعتقد أن علينا إخبارها بخطتنا.

- وما هي خطتنا بالضبط؟ أن نتسلل لقصر سليمان لأننا نتوقع أن البعبع قد ذهب هناك وأقام متحف شمع خاص به بعد رحيل السيرك؟

- أترى مكانًا أفضل من هذا القصر المسكون كي يقطن به البعبع؟

- بالطبع لا، ولكن...

- لا يوجد لكن.. الأهالي لا يصدقوننا وكذلك الشرطة..

- لم لا نكون في حالنا فحسب ونترك الأمر برمته؟

- لأننا أبطال.

قالها قدري في فخر فنظرا له بإعياء..

كان الثلاثة يسيرون في الشارع، وانعطف أكرم يمينًا ملوحًا لهما وهو ذاهب لمنزله.

هتفت له نسرين في مشاكسة: وداعًا يا أنف بينوكيو.

هز أكرم رأسه في استسلام يائس وواصل السير..

واصلت نسرين السير جوار قدري في صمت قبل أن تقول: قدري..

- نعم..

كان يلوك الشطيرة وعقله محموم تمامًا بالبعبع، لم يبد لها أنه يفكر في اعترافه لها بالحب.. ولم ترد أن تثير الموضوع الآن.

أضافت: كن حذرًا.

أومأ لها برأسه.. وصلت هي إلى منزلها وأكمل قدري طريقه..

ومن على بُعدٍ كان مستر عادل يسير الهويني، قبل أن يتجه لبناية نسرين..

***

السادسة مساء..

غربت الشمس ورحل الجميع عن المدرسة.. لم يكن هناك سوى عامل النظافة ومس علا التي تواصل العمل لوقت متأخر عمدًا، متجنبة عودتها للمنزل.. سوف تعود لمشاحنات لا تنتهي مع زوجها والذي تتمنى أن يتحول لقبه لطليقها، لكن والدها ووالدتها لن يسمحا أبدًا بمثل تلك الفعلة، لا يوجد طلاق.. هذا أمر مخزٍ بالنسبة إليهما.. هذا ليس حلًا.. رغم أنها هي وزوجها يبغيانه بشدة..

تتنهد وهي تضع أوراقها في الملف وتقف بهدوء..

تسير في الردهة المدرسية وسط الفصول الفارغة..

المدرسة ضخمة حقًا، مدينة صغيرة محاطة بسور ضخم وتضم ثلاثة مبانٍ عتيقة، واحد للثانوية والآخران للابتدائية والإعدادية.. هناك فناء ضخم وثلاثة ملاعب للكرة والسلة والتنس الأرضي.. ومبنى رابع صغير به المكتبة ومأدبة الطعام.. أحيانًا تشعر علا أن المدرسة جامعة صغيرة متنكرة..

يحل الظلام.. وترى علا عامل النظافة أمامها يسير وهو يمسح الأرض.. تحييه لكنه لا يرد عليها، العجوز يعاني مشاكل في السمع وهي تعلم هذا جيدًا..

لم ترَ علا شبح الأوبرا وهو يخرج من أحد الفصول ليقف وراءها وهي تسير.. وعندما هاجمها من الخلف وصرخت مستغيثة لم يسمعها العجوز وهو يمسح الأرضية قبل أن يدخل أحد الفصول لينظفها..

***

بعد ساعة..

عندما رن عادل جرس شقة نسرين، كانت الأخيرة تعد لنفسها وجبة الغداء أو العشاء بالداخل، فيلم «البحث عن فضيحة» سيُعرَض في السهرة وهذا الفيلم قادر دومًا على إضحاكها، زمجرت وهي في المطبخ.. هي لا تعلم ماذا نسمي الطعام وقت المغرب، ربما لو كان والدها معها لأخبرها.. كلا.. ربما لو كانت والدتها لا تزال حية لكانت - بالتأكيد - أخبرتها مبتسمة، واحتضنتها في حنان.. لا تعلم لماذا لكنها تعلم أنها لكانت ستحتضنها في حنان، تبًا لوالدها الوغد.. تأففت نسرين عندما رن الجرس.. وبالخارج يقف المدرس المتوتر الذي يأمل ألا يراه الجيران، ويدعي ألا يخرج أحدهم ليصلي بالمسجد في تلك اللحظة، لقد فشلَ في مقاومه رغباته ومعدته تتقلص في مزيج من القلق والحماس غير الطبيعيين الآن، على أي حال ربما يفترضون أنه قادم من أجل درس خصوصي.. بعض الأهالي يطلبون تلك الخدمة النادرة لأولادهم..

تأفف نسرين، تكره المتطفلين.. تذهب وتنظر من العين السحرية.. تبًا إنه المدرس اللزج..

وجدت نفسها تقول بسرعة ووقاحة: ارحل..

قلبها يدق بعنفٍ.. هناك شيء مرعب دومًا في حضور الزوار غير المرغوب

فيهم..

وجهه يقول شيئًا لا تتبينه وهي تنظر من خلال العين تصيح هي: قلت لك ارحل..

ثم تهرع بعدها لغرفة نومها.. لا تعلم لماذا هي فعلت ذلك، عندما صفعها - المرة الوحيدة التي صفعها فيها - هرعت هي لغرفة نومها لتبكي وتفكر فيما ستفعله وكيف ستتصرف، لقد صفعها لأنها تطاولت على زوجته.. وأضحت غرفتها هي معقل التخطيط والملاذ بالنسبة لها.. ربما لهذا ذهبت لغرفتها.. سترتمي على فراشها وتستجمع قواها ولو لم يرحل خلال دقائق ستملأ الدنيا صراخًا ولسوف يفتك به سكان البناية..

تربعت على فراشها بدلًا من الارتماء فوقه لتشعر نفسها بالقوة والتحكم.. مولية ظهرها لخزانة ملابسها.. التي انفتح بابها ببطء.. وخرجت منها يدٌ شبح الأوبرا..

لم تعلم نسرين أن البعبع يقبع في خزانتها وهي جالسة وحيدة في غرفتها تفكر بالمدرس..

يخرج الشبح من الخزانة، يتجه صوب نسرين.. ويضع يده على عنقها والأخرى على فمها ليمنعها من الصراخ.. تتسع عينا الفتاة في رعب..

عادل يقف مترددًا وآملًا أمام الباب، لقد افترض أن الفتاة منحلة، ولسوف ترحب به، لكن.. ربما هي تتدلل فحسب.. يرن الجرس وهو يقول لنفسه: تلك المرة الأخيرة لو لم تفتح سوف أرحل.. ولو تحدثت سوف أنكر كل ما حدث، حتى لو نقلوني لمدرسة أخرى بعيدًا عن تلك البلد اللعينة أنا لا أهتم..

يتذكر مذاقهن ويرتجف.. المخاطرة تستحق بالتأكيد..

لدهشته ينفتح الباب قليلًا.. يبتسم في سعادة غامرة.. لقد كانت تتدلل بعد كل شيء..

يزيح الباب الموارب بيده ويدلف للشقة، يغلق الباب وراءه، وتختفي ابتسامته متظاهرًا بالرصانة والجاذبية، ويدور بعينيه بحثًا عنها متخيلًا إياها خارجة إليه برداء نوم أو بشورت قصير، وجد نفسه أمام الرجل مشوَّه الوجه ذي القناع والعينين الحمراوين، وقبل أن يفتح فمه غرز الرجل مخالبه كلها فيما بين ساقي عادل الذي شهق بألمٍ وثبت يديه على كتفي شبح الأوبرا، قبل أن يسقط على ركبتيه أمام الرجل، وعندما سقط ظلت مخالب الشبح مثبتة داخله لتمزقه تمامًا.. بصق عادل دمًا، ورفع عينيه ببطءٍ لينظر لقاتله، كان هذا عندما غرز الشبح مخالبه في تجويف عيني عادل مخترقًا مخه.. سقط الأخير جثة هامدة.. في منزل الفتاة التي لطالما أرادها..

المخاطرة كانت دومًا تستحق بالنسبة إليه..

***

فتحت نسرين عينيها ببطء، صداع في رأسها، وخدر في جسدها.. تمامًا كالحلم.. حاولت رفع رأسها فآلمها عنقها.. بدأ قلبها يدق بسرعة وخوف.. أدركت أنها مُكمَّمة الفم، ومكبلة اليدين والقدمين.. واستوعبت أنها لا ترى شيئًا على الإطلاق.. هل أصبحت عمياء؟.. حاولت أن تصرخ بهستيرية عندما واتتها الفكرة قبل أن تفهم أنه قد وضع غشاء قماشيًا على عينيها.. لقد اختطفها البعبع الذي حاول قدري تحذير الجميع منه..

عرقها يتصبب، الأدرينالين يتدفق في جسدها، حسنًا كوني قوية.. تقول لنفسها.. الهلع لن يفيدك.. أنتِ عاجزة جسديًا الآن لكنك قادرة على التفكير.. فقط كوني قوية وفكري..

تعبث بيديها في القيود الخشنة والمتينة لمدة نصف ساعة حتى تدميهم تمامًا، ويتصلب ذراعها قبل أن ينساب إليه ألم مريع، وتنتابها كوابيس يقظة عدة وهلاوس وهي تفعل هذا، لكنها تنجح في فك القيود أخيرًا.. تحرر يدها بلهفة وتنطلق أصابعها باحثة عن قيود يدها الأخرى..

تدفع بيديها بعد لتزيح القماشة اللعينة من على عينيها، تغمضهما للحظات متحاشية احتمالية ضوء ساطع ثم تفتحهما ببطء لتجد الظلام من حولها، اللهم إلا من ضوء القمر.. إنهم في قلب الليل..

نعم.. إنهم.. هي ليست وحدها، تشعر بكيان ما معها في الظلام..

تحاول ألا تفكر في هذا حتى لا تجن، هو ليس معك الآن.. لن يقترب منك في الظلام.. لن تشعري بيده على عنقك..

لن تتوهج عيناه الحمراوان وهو ينظر إليك..

تحل نسرين قيود قدميها وتقف مسرعة قبل أن تسقط على وجهها لتخشُّب ساقيها، يندفع الدم إليهما وتقف ببطء تلك المرة وهي تتنفس بسرعة..

أدركت أنها في المدرسة.. المدرسة الخالية من البشر جميعًا عدا هي والمسخ..

لماذا لم يقتلها؟.. لماذا قيَّدها وتركها؟ أكان يعلم أنها ستحل قيودها؟.. هل

كان يلعب بها؟.. يراقبها ويتسلى الآن قبل أن يقرر أن وقت المرح الحقيقي قد حان فيفتك بها، تتخيل مخالبه الحادة في جسدها وترتجف باكية.. هي في أحد الفصول.. تسير متوجسة برعب نحو الباب، تمد يدها نحو المقبض وهي تشعر أن يده ستنقبض على يدها الآن، ستشعر بيده الباردة على المقبض وسط الظلام..

تشهق للفكرة قبل أن تضع يدها على فمها، تدير المقبض.. ينفتح الباب مُصدرًا صريرًا خافتًا.. تطل برأسها للردهة متوقعة أن يقبض على شعرها ويشدها منه مثلما وصف قدري ما فعله بالمرأة في المتحف.. كان قدري يقول بعينين متسعتين وهو يلهث: لقد قبض على شعرها وظلَّ يجذبها منه.

تبتلع نسرين ريقها وتخرج للردهة.. تسير وسط الظلام.. قبل أن ترى كومة من الملابس على الأرضية، ما الذي أتى بكومة من الملابس إلى ردهة المدرسة؟.. تقترب نسرين.. تقترب.. قبل أن تضرب نفسها بقوة على فمها كي لا تصرخ وهي تنظر لعامل النظافة المكوم على الأرض غارقًا في دمائه وأحشاؤه تتدلي من معدته.. تجري نسرين في هلع صامت لتنزلق قدماها إثر بِركة الدماء على الأرض، تسقط على رأسها وتتناثر دماء العجوز على وجهها وتبلل شعرها، رأسها يؤلمها بشدة، الصداع يعود ورؤيتها تزوغ.. ترى أحدًا ما يقترب منها، أو يبتعد عنها.. رؤيتها زائغة بشدة..

تعتدل ببطءٍ.. هيًا يا حمقاء ركزي، بإمكانك الهروب..

تحاول أن تقول هذا، وتقف لتحاول مسح دموعها..

تدندن لنفسها أغنيتها التي ألَفتها وقت التحديات

- هيًا أيها الحظ اللعين.. ستحالفني الآن

تسير ببطءٍ، محاوِلة الوصول لنهاية الردهة، بعدها سُلَّم طويل سيؤدي بها للبوابة، وبعد ذلك الفناء.. بعدها بوابة الخروج للمدينة..

تبًا لمدرستها الكبيرة الأشبه بالمتاهة، لسببٍ ما هي تسير الآن ولا تعدو.. كأن جريها سينبّه الشيطان إليها ولسوف يطاردها إذا فعلت هذا..

أمام عينيها غير المصدقتين ترى «مِس علا» أمامها، تسير ببطء في الردهة - مقاربة للسلم - وتولي ظهرها لنسرين..

تهمس نسرين باكية: مس علا.

تقف المرأة، ويبدو لنسرين أنها تترنح.. شيء مريع حدث لمعلمتها المفضلة.. تتجه نسرين نحو المدرّسة في أمل، تقف وراءها وتضع يدها على كتفها.. تستدير مِس علا لنسرين.. وتصرخ الأخيرة.. تصرخ بلا توقف.. أمامها يقف البعبع وقد ارتدى فروة رأس علا وجلدها لينسدل شعرها فوقه، لقد سلخها وارتداها..

ليلى والذئب، ادخلي يا صغيرتي لتقابلي جدتك.. أنفها كبير قليلًا، فمها كبير قليلًا.. لكي آكلك به..

كان هذا آخر ما فكرت فيه نسرين قبل أن تفقد وعيها..

***

الفصل الحادي عشر

لوهلة شعرت نسرين أنها في إحدى قصص الأطفال التي كانت أمها تقصها لها قبل النوم، هي الأميرة، والوحش الشرير قد اختطفها في القصر الملعون، والآن سوف ينكسر الباب ليدخل الشاطر حسن، أو الأمير الوسيم ملوحًا بسيفه في ضرواة لينتصر على الوحش وينقذ الأميرة الجميلة.. تنظر إلى الباب بطرف عينها، لا أمير هناك يا فتاتي.. لا يوجد سوى أكرم وقدري.. هما أملك الوحيد، سوبر ماريو وأخوه في المرحلة الأخيرة لإنقاذ الملكة.. ولكن.. كم من الوقت سيستغرقان كي يفهما أن البعبع قد أخذها.. سيقلقان لأنها غابت عن المدرسة، لن يجسرا على زيارتها في المنزل للاطمئنان عليها، ربما سيترددان ويجسران في نهاية المطاف، ربما يقلقان لتغيب علا أيضًا، هي قد قصت عليهما محادثتها مع الأخيرة.. ربما يعتقدان أنها قد رحلت مع علا للاستجمام.. كلا هما ليسا أغبياء، صاحت لعقلها المتشكك: صديقاي ليسا أغبياء.. سوف يفهمان أنه أخذني..

حقيقة أنه يخفي جثث ضحايا، يقطعهم و.. أغمضت عينيها وأجبرت نفسها ألا تفكر في باقي التفاصيل... لا يهم ما يفعله، المهم أن أحدًا لن يجد جثة عامل النظافة وعلا.. آه المدرس.. عادل.. هل رحل من الشقة؟.. هي لا تتذكر، لقد هاجمها المسخ وفقدت الوعي لتمر بكابوس المدرسة..

ثم فقدت وعيها وكادت تفقد عقلها معه عندما وجدته في جلد علا.. استيقظت بعدها لتجد نفسها مقيدة فوق هذا اللوح الخشبي في قبوٍ مظلم، لم يتطلب الأمر أدرك كي تدرك أنها في قصر سليمان.. لقد كانوا محقين، وقد

اتخذ شبح الأوبرا من القصر المهجور مأوى له..

هنا أضاء هو النور.. فجأة.. نور شمعة تلو الأخرى.. كان يبتعد عن نور الشمعة فلا ترى وجهه، يتحرك بسرعة ليضيء أخرى، أهو يعيد تمثيل مشهد من شبح الأوبرا؟.. عم الضوء المكان كله، وشهقت نسرين.. هي ليست في قبوٍ مُظلمٍ، هي ترقد مقيدة الأوصال على منضدة طويلة في قلب القصر.. هي في الصالة.. جوارها غرفة ضخمة لاستقبال الضيوف، بجوارها مكتب عملاق يحتوي على مئات الكتب، منذ مئة عام جلس سليمان باشا إلى هذا المكتب يدخن الغليون ويفكر في عشيقته، قبل أن يقوم ويذبح زوجته وينتحر.. وهنا في غرفة الضيوف تلك كان يستقبل الإقطاعي ضيوفه، وربما كان الخدم يمرون جواره وهم يرتجفون من سُلطته وجبروته.. هل جذبت طاقة الشر الكامنة في القصر شبح الأوبرا إليها؟.. هي لا تعلم.. هي فقط ترى روح القصر المهجور، روحه العجوز المُحمَّلة بالندوب وتجاعيد الزمن، العناكب التي نصبت شباكها في كل صوبٍ.. الأثاث المتحلل والعمدان المتهالكة، السلم العجوز المؤدي للطابق الثاني حيث غرف النوم.. غرف النوم ذات الشُّرَف الفاخرة المطلة على نهر النيل وحديقة القصر، لقد كان سليمان باشا يحيا في نعيم حقًّا، هل تمكن منه القصر بسبب لعنة ما وأفقده صوابه؟.. أم أن هذا هُراء المتطيرين فحسب؟ هي لا تعلم بشأن سليمان باشا، لكنها واثقة أن القصر لم يتلاعب بعقل البعبع.. هذا الرجل يحمل شره الخاص..

يحمل شيطانه الخاص معه، حاولت ألا تنظر إليه.. يا لرهبة الشر.. أمامها يقف هو في عباءته السوداء، لم تخف من القناع ولا الخنجر ولا حتى المخالب والأنياب، كلا.. لقد ارتعبت من عينيه، تلك النظرة الفارغة في عينيه،

عينان بلا حياة.. غير مباليتين.. مَن هو؟.. هل كان طبيعيًا يومًا ما؟..

سار الرجل الذي كان يدعى أدهم وهو ينظر إلى نسرين، إلى ركن لا يزال مظلمًا من القصر، وأضاءه.. شهقت نسرين.. تماثيل الشمع.. تماثيل جديدة صنعها لضحايا، أم هؤلاء هم ضحايا وهو قد حنطهم؟... أهذا ما يفعله بالجثث؟.. يأخذهم ويقطعهم ويرقدهم على مائدة كالتي ترقد هي فوقها، ثم يسكب عليهم السائل المغلي اللعين إياه الذي يحوّل البشر لتماثيل شمع، ما هو اسم هذا السائل؟.. هي لا تتذكر.. لكن هذا السائل هو أسوأ كوابيسها الآن..

يسير الرجل الذي كان يدعى أدهم صوب نسرين.. لقد مات الجزء البشري بداخله منذ زمن، منذ تلك اللحظة التي كف فيها عن الكلام وهو في السجن.. ربما كان هذا الجزء المظلم بداخله، ينمو منذ طفولته.. ربما وُلِدَ هذا الجزء عندما ركل الكلب حتى الموت وهو طفل.. هذا الغضب بداخله الذي يدفعه للقتل، منذ آلاف السنين كان أهل القبيلة يقدمون القرابين ويقتلون نسلهم، ربما هو من أهل القبيلة، وتمكن منه الظلام بداخله.. اللاوعي البشري بكل كوابيسه..

ينظر شبح الأوبرا لبرعي الواقف يراقب ما يحدث، صديق طفولته التخيلي الذي لم يفارقه لحظة منذ عودته من الباخرة.. يصفق له برعي مبتسمًا، ويغمز له.. يقف شبح الأوبرا أمام نسرين..

هنا تلمح الفتاة تمثال شمعٍ بعيدًا لم تلاحظه في البداية وتصرخ، تلك هي جارتها.. لقد أخذ جارتها.. ونظرة الفزع على وجه التمثال والصرخة الصامتة والفم المفتوح تقول لها بوضوح إنه اختطف جارتها وسكب عليها السائل المغلي وهي حية ليحولها لتمثال شمع..

هذا الرجل يستطيع اقتناص أيّ أحدٍ، هذا الشر المطلق.. لا يوجد أحدٌ قادر على إيقافه..

يضع هو يده على وجهها، وتشعر بمخالبه الحادة على جلدها.. تغمض عينيها، قلبها يقفز داخل صدرها.. سيتوقف الآن.. هي واثقة من هذا.. لكنه يواصل العمل..

تحاول نسرين أن تمتم بشيء، لكن كلماتها تخرج على هيئة صرخات فزع.. هنا ينحني الشبح ويحمل وعاء من المنضدة.. وعاء به سائل يغلي..

تتسع عينا نسرين في رعبٍ أزلي، لقد كانت محقة، تبًّا ليتها لم تكن محقة، سيسكب فوقها السائل المغلي ليحولها لتمثال شمع..

بإمكانها تخيُّل الألم الجنوني للكابوس القادم..

ينظر إليها هو في هدوء، ويقترب منها حاملًا الوعاء..

وتشعر نسرين كأن التماثيل تنظر لها مواسية، أعينهم تقول: نريد أن نقول لك ألا تقلقي، إن الأمر سيمر بسرعة.. لكن هذا ليس حقيقيًا.. هذا ليس حقيقيًا بالمرة..

ويبدو لنسرين أن جدران قصر سليمان تضحك في تشفٍّ وسخرية بينما المسخ يستعد لعملية تحويلها لأحد تماثيل القصر..

***

الفصل الثاني عشر

قبل عدة ساعات..

- الله أكبر.

كبّرت والده قدري للمرة الثالثة وهي تصلي بأعلى ما تستطيع حنجرتها تحمُل من صوت، أمامها يقف قدري الصغير يحاول فهم أو تخمين ما تريده، بعدما أنهت الصلاة نهرته في استنكار لأنه لم يفهم أنها تريد منه إخراج الدجاجة من الثلاجة كي تتفكك، هز قدري كتفيه في تعجب قائلًا: لمَ كل الأمهات يفعلن تلك العادة، التكبير أثناء الصلاة متوقعات من أبنائهن فك طلاسم اللغز.. لقد تطور الأمر من التكبير أثناء الصلاة لأسباب مثل الرد على الهاتف، إلى إخراج الدجاجة المجمدة..

- ساعدني في فك زجاجة الزيت أيها المتحذلق.

وبينما يزيح قدري غطاء الزجاجة لاحظ نظرة الشرود على وجه والدته، الحقيقة أنه كان يفهمها دومًا، ويعلم جيدًا أنها كانت تفكر في تلك اللحظة بالفكرة المقيتة التي زرعتها طنط سعاد صديقتها في عقلها، ألا وهي أن سفر والده المتكرر وغيابه سببه زواجه من فتاة عربية هناك وليس العمل فحسب.. كما أنها شاهدت حلقة في التلفاز يتزوج فيها ممدوح عبد العليم أو أحمد عبد العزيز - لا يتذكر أيهما - للمرة الثانية ويخبئ الأمر عن زوجته..

وبينما يزيح قدري غطاء الزجاجة كانت والدته تنظر إليه خلسة وهي تشرد لتفكر في صغيرها.. ترى تلك الهلاوس التي ملأ بها الدنيا ضجيجًا عن البعبع.. ما الذي أتى بها لعقله؟ هي تعلم أن صغيرها يمتلك مخيلة قوية، وتعلم

أنه مختلف عن كل أبناء جيله.. تلك ليست أفكار أم حنون فحسب بل هي الحقيقة وهي تثق بها..

تذكرت منذ أشهر عندما زارهم مندوب مبيعات ذات مرة في البيت وكان زوجها حاضرًا، كانت موضة رجال المبيعات قد ظهرت مؤخرًا بعد الانفتاح والعولمة، كان الشاب يبيع المكانس الكهربائية، فتح له قدري في البداية وانضمت هي له.. تعامل الاثنان مع المندوب بمودة، وربما هي انتوت حقًّا شراء شيء منه.. لا تعلم.. كانت بحاجة فقط للحديث مع الغرباء حتى لو كانوا رجال مبيعات، إثر عزلتها وانهماكها الدائم في العمل وشؤون المنزل.. كانت بحاجة لتجربة شيء جديد، قدري كان مستمتعًا تماما بالموقف.. وضحك كثيرًا على مداعبات الغريب، ثم جاء والده وتبادل حديثًا قصيرًا مع الفتى متظاهرًا بالود، واتضح أنهم "بلديات"، بعدها فجأة دون سبب، نهره زوجها وزعق فيه قبل أن يسبّه ويطرده متهمًا إياه بالاحتيال.. لم تنسَ هي أبدًا هذا الموقف.. ليس احتيال زوجها على رجل المبيعات واستدراجه لشرك نفسي قبل أن ينقلب عليه، هي معتادة جيدًا على شخصية زوجها الغامضة والمتقلبة، وجنون العظمة الذي يمتلكه كأنه الطبيب الوحيد والعالم قرية من الجهلاء تحيط به، لقد علَقَ الموقف في ذهنها بسبب رد فعل ابنها، الذي ظلَّ مبتسمًا في غباء بعدها طيلة اليوم.. وتعبير من البلاهة يعتلي وجهه.. كأنه يحلل طاقة العنف اللفظية التي وقعت أثناء الموقف.. ربما يبدو هذا شأنًا تافهًا لباقي الأمهات، لكنها دَقيقة الملاحظة.. وملاحظتها تلك أخبرتها بما كانت تعرفه دومًا عن ابنها.. ردود أفعاله للمواقف المتطرفة تختلف دومًا عن الجميع.

Telegram:@mbooks90

جلس الاثنان يتناولان الطعام، وقال لها قدري بفم ممتلئ: أريد الخروج مع أكرم قليلًا اليوم.

ثم أضاف إزاء نظرتها: أرجوك.

***

قبل عدة ساعات..

- أنتِ طالق...

ظل أكرم في غرفته يحاول تبين حقًا إن كان قد سمع والده ينادي والدته بهذا الاسم أم لا، هل هذا هو الوصف المناسب؟ تساءل الصغير.. هل أمه طالق؟.. لقد بدأ الأمر بشجار يحمل قدر العصبية المعتاد بينهما وهما جالسان أمام التلفاز، كان يجلس معهما ويستمتع بالعرض التلفزيوني، فيلم «إعدام ميت» كان مشوقًا بحق، رآه أول مرة في صباح العيد، وأصبح أحد أفلامه المعتادة الناجمة من طقوس العيد المقدسة، مثل الفيلم الصباحي والزيارات العائلية والإفطار الغامض، الكبد، التمهيد الخبيث الذي تعقبه ولائم الفتة..

نعم كان فيلم إعدام ميت مشوقًا، وكان فريد شوقي على وشكِ معرفة سِرّ خطير بشأن محمود عبد العزيز عندما بدأ الشجار، وتزايَد بعدها.. ليجد التلفاز مهشمًا، لقد تعلم أن يهرع لغرفته عندما يبدأ والداه في ضرب بعضهما البعض.. يختبئ في رعب جوار الفراش.. لو كان هناك سبب لحب أكرم لسلسلة صرخة الرعب فهو أنه شتى أنواع الإثارة والتشويق من والديه، لن تشعر بلحظة ملل واحدة معهما.. أغمض عينيه وانتفض وهو يسمع صوت لطمه على وجنتي أمه، تساءل للحظة إن كانت تلك وجنتها اليمنى أم اليسرى

قبل أن يقرر أنَّ هذا غير مهم.. غير مهم على الإطلاق.. سبَّت هي أباه ثم سمعه يدعوها باسمها الجديد..

ذات مرة تزايد الشجار واستغاثت والدته بالجيران من قبضة والده، وأصبح هناك الكثير من الزوار الفضولين في بيتهم، وأتى الأقارب وكل شيء..

ومثلما حدثَ في تلك المرة أتى جده وأخذه من البيت، جلسوا في صالة بيته، وقال له العجوز: والداك لن يعيشا سويًا الآن.. تلك الأشياء.. آه.. مثل تلك الأشياء تحدُث، ينفصل الآباء عن الأمهات.. لا تقلق.. لن يتغير شيء.. تذكَّر ما علمتك إياه دومًا..

ونظر إليه فقال أكرم في تردُّد: أُقاتل حتى الجولة الأخيرة.

غمز له جده فضحك أكرم قبل أن يحتضنه، جده كان ملاكمًا فيما مضى.. ولو كان علَّم أكرم شيئًا ما.. فهو المثابرة.. جاءت جدته وانضمت إليهما..

- ستظل معنا لفترة أيها البطل الصغير، ولسوف نغرقك في الحلوى والطعام.. استعد كي تكون بدينًا.

- أنا لست صغيرًا.. ولا بدينًا..

ثم فكر أكرم، ربما سيظل هنا حقًا معهما وهما يتظاهران أمامه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ولن يرى والديه أبدًا.. سيكون حزينًا.. حزينًا وبدينًا.

نفض أكرم رأسه قبل أن ينظر لجده آملًا ويقول: أريد الخروج مع قدري قليلًا..

جده كان يعلم أن العديد من الاجتماعات العائلية قادمة، أهل زوج ابنته قادمون.. صراعات من سيحتفظ بالفتى، ومحاولات إلقاء اللوم.. من الأفضل ألا يكون الصغير هنا..

ابتسم الجد لأكرم وقال: حسنًا..

***

بعد نصف ساعة..

- أنا آسف يا رجل

قالها قدري وهو يسير بهدوء جوار أكرم.. شعر أكرم بقليل من الامتنان لصديقه بمناديته بـ «رجل».. جلس الاثنان على أحد الأرصفة ولعبا لعبة حرق الأشياء قليلًا، حرقا زجاجة مياه بأعواد الثقاب ورمياها ضاحكين في النهر.. بعدها قال قدري: عالم الكبار مخيف حقًّا..

- نعم.. نعم تلك حقيقة.

- وماذا عن البعبع؟

- هو مخيف أيضًا.

ربما لو رأى محلل نفسي الطفلين في تلك اللحظة لقال أنهما يهربان من واقعهما بما يتضمنه من مشاكل أسرية بتخيُّل وجود المغامرة والرعب في قصر سليمان، وهجوم البعبع على المدينة..

إلا أنه لم يكن هناك محللون نفسيون.. وكلاهما كانا مقتنعين بما يقولانه.. خصيصًا قدري الذي رأى بعينيه..

نظر الاثنان إلى كابينة هاتف في الشارع وقال أكرم: لنتصل بنسرين..

بعد محاولة الاتصال العاشرة بها دون رد، أدرك الاثنان أن شيئًا ما قد حدث.. توهجت عينا قدري قبل أن يهتف: البعبع قد أخذها لقصر سليمان.

- ربما هي...

- كلا.. هي لا تخرج في المساء.. نحن أصدقاؤها الوحيدون.. صدِّقني هذا هو الاحتمال الوحيد.

نظر أكرم لقدري في تشكك، فهتف الأخير: حسنًا ربما أكون مخطئًا.. ولكن ماذا لو كنت محقًّا؟.. ها.. ماذا لو كنت محقًّا بالله عليك؟..

تخيل أكرم احتمالية أن يكون قدري محقًّا قبل أن يغمغم: يا إلهي!

- ماذا نحن بفاعلين؟

- الكبار لن يصدقونا.. ولن يأتي أحدٌ معنا للقصر المهجور للبحث عنها.

- إذًا...

شد قدري من قامته.. وأكمل: ننقذها نحن..

***

الفصل الثالث العشر

يخرج قدري جهاز «الوالكمان «من جيبه ويضع سماعة في أذنه والأخرى في أذن لتنطلق أغنية فيلم «صائدو الأشباح» في آذانهما.. يسير الاثنان صوب قصر سليمان بخيلاء وشجاعة وقد أعطتهما الموسيقى قوة خارقة، يتخيلان أنفسهما كأبطال الفيلم.. يسيران بالدروع ويصطادان الأشباح في المدينة..

يصل الاثنان للقصر.. ينظر أكرم لقدري ويقول: تبًا لك!

- تبًا لك أنت أيضًا.

يشد الاثنان على يدِ بعضهم البعض.. يقول أكرم: سوف أكون فاندام تلك المرة..

- وأنا الرجل الوطواط.

- هذا ليس عدلًا، والدك الثري أخذك للقاهرة وشاهدتما الفيلم في السينما.. أنا لم أشاهده ولا أعرف قدرات الوطواط بعد.

- حسنًا.. أنا شورازنجير..

- هاها.. مستحيل من الأفضل أن تكون العم بطوط.

- أخرق.. حسنًا حسنًا.. عرفت من سأكون.. أنا أميتابتشان.. آه كلا.. أنا جيمس بوند.

نظر له أكرم مفكرًا قبل أن يومئ له برأسه مصرحًا له بأن يكون بوند، ثم نظر كلاهما للقصر.. وقال الاثنان: نحن لن نخافك بعد الآن أيها البعبع اللعين..

- قدري، انتظر هناك شيء يجب أن أعترف لك به.. أقصد.. لو حدث لنا شيء بالداخل.. يجب أن أخبرك بالسر في حالة لو حدث لي شيء..

ابتلع قدري ريقه ونظر لاكرم في توجُس.. أسيعترف له أنه قد ارتبط بنسرين أم أنه هو البعبع أم...

- قدري أنا.. حسنًا.. لا توجد طريقة جيدة لقول هذا.. أنا أشاهد أفلام الكرتون..

رفع قدري حاجبيه وتراجع للخلف مصدومًا..

هتف أكرم: هذا لا يعني أني لا أحب تشاكي وفاندام.. تلك هي أفلامي المفضلة.. وصرخة الرعب كذلك.. لكن.. لكن...

- لكن ماذا يا أكرم؟

- أحيانًا.. أستمتع بقراءة ميكي.. ومشاهدة...

- مشاهدة ماذا؟.. كرتون الفواكه؟

قال أكرم كاذبًا: آه بالطبع لا.. ولكني أشاهد بابار الفيل..

- تبًا لك أيها المخنث!

تهدج صوت أكرم وقال مدافعًا عن نفسه: أحيانًا وليس كثيرًا.. أحيانًا أشاهد توم وجيري..

- كلنا نشاهد توم وجيري، هذا هو الاستثناء الوحيد لأفلام الرسوم المتحركة.. ولكن بابار.. ماذا تشاهد أيضًا يا عروس البحر؟

تنهد أكرم قبل أن يقول في يأس: الأميرة النائمة، وسندريلا، والجمال

النائم..

قالها بسرعة كأنه يبصق ليتخلص من الكلمات، وصعق قدري قبل أن يصرخ: أيها الوغد الرقيع!

- والدتي جعلتني أشاهدهم.. خالي أحضر الأفلام معه وهو عائد من الكويت و...

- اصمت.. أنت حتى لا تمتلك جهاز تسجيل.

- نعم ولكني شاهدتهم على جهاز خالي عندما زارنا.. لقد بدأ الأمر كله بمجلات تان تان و...

- آه طبعًا.. تان تان.. صديقي مخنَّث يا قوم..

- أنا شاهدت كل أفلام فندام وستالون..

- اخرس.. لهذا تحب بروس ويليس..

- سيوسع مؤخرتك ضربًا لو سمعك..كما أنه ليس عدلًا، نحن نلعب الأتاري الذي هو عبارة عن رسوم متحركة لكننا لا نستطيع مشاهدتها.

- هذا لأن اللعب مسموح به، لكن أفلام المخنثين لا تصلح لرجلين في الصف الخامس الابتدائي أيها الـ...

تنهد قدري، ثم رفع يده ليهدئ نفسه وقال: حسنًا.. لو نجونا سوف نرى ما الذي سنفعله بشأن اعترافك هذا.. والآن لندخل قصر سليمان باشا.

ثم تلفتا حولهما ليتأكدا من خلو المكان من المارة قبل يضع أكرم كلتا يديه ليرفع قدري الذي قفز لأعلى لينسل من فوق السور ثم يمد يديه ويحمل أكرم

ليرفعه، سقط الاثنان متجاورين في احترافية قبل أن يسيرا منبطحين في الحديقة الضخمة المحيطة بالقصر..

- ماذا لو أن هناك كلابًا؟

- لا تقل مثل هذه الأشياء، لا تفكر حتى بها.

يصل الاثنان لبوابة القصر المُغلَقة، ثم يلفان حوله، ينظر قدري لأكرم ويشير له بإشارة عسكرية تعلَّمَها من الأفلام موجهًا إياه..

- ها؟

- سِز أمامي واهمس مثلي.. لا تعلي صوتك.. للبعبع آذان حادة.

- ومن أين لك أن تعلم بقدراته في السمع؟

- لا أعلم.. كل الغيلان يمتلكون آذان حادة.

- طبعًا طبعًا.. وهل تعلمت هذا في درس العلوم؟

- متحذلق.

- أخرق.

يصل الاثنان للبوابة الخلفية المؤدية للقبو.. يمد قدري يده بحرص ويدفع الباب..

- آه كنت محقًا.

- فقط لأن الباب ليس محكمًا.. أعني... هذا لا يعني...

- اصمت واتبعني.

- حسنًا.

يدخل الاثنان قصر سليمان..

- أكرم...

يهمس قدري..

- ماذا؟

- أريد الاعتراف لك بشيء أيضًا.

- تفضل..

- لقد صارحت نسرين بحبي لها.

- ماذا؟.. كيف؟.. متى؟.. هل استجابت؟

- أخفِض صوتك بالله عليك.. طبعًا استجابت.. احمرَّ وجهها وكل شيء.. وابتسمت في خجل و...

- يا لك من كاذب!

صمت الاثنان بعدها وهما يقفان في القبو المظلم الشبيه بغرفة الفئران الأسطورية التي لطالما هددوهما بها أهاليهما في سادية مريبة.. رائحة كريهة تهب على أنفيهما فتتقلص وجوههما.. يسيران منبطحين ويصعدان سُلَّم القبو في حرص، يمسك قدري مقبض الباب ويهمس أكرم: ماذا لو فتحنا الباب لنجده في انتظارنا؟!

- هو لا يعلم أننا قادمون.. عنصر المفاجأة معنا، وهذا هو نصف الحرب.

- كف عن اقتباس أفلام الحروب، كما أن المفاجأة نصف المعركة، وهناك أنصافٌ أخرى كما تعلم.. المفاجأة ليست كل شيء.

- حسنًا، ماذا تقترح؟

- لا أعلم.

- إذًا دعني أفتح الباب.

يدير قدري مقبض الباب ببطءٍ وأكرم يحبس أنفاسه، يبدو لهما وكأن الزمن قد توقف والباب ينفتح.. يتجنب الباب قليلاً في النهاية، يوقفه قدري فجأة عندما يبدأ في إصدار صرير مزعج، ينظر الاثنان للهول الماثل أمامهما؛ تماثيل شمع.. الكثير منها، وفي المنتصف نسرين مقيّدة فوق مائدة طعام كأنها وجبة اليوم، جوارها يقف شبح الأوبرا وهو يهم بسكب ما بدا لهما أنه ماء مغليٌ عليها.. يلتفت شبح الأوبرا إليهما..

- آه، أعتقد أنه سمع صرير الباب.

لكنه يعود بنظره لنسرين..

- كلا لم يسمعنا.

- ماذا سنفعل؟

كلاهما يدرك جيدًا أنه بعد ثوانٍ سيتم شواء أو غلي أو قلي نسرين.. يندفع أكرم ويهتف بعد دفعه للباب: توقف أيها ال... ال... الوغد..

يتبع قدري أكرم ويقف جواره..

تنظر نسرين في عدم تصديق لمنقذيها..

ويلتفت الشبح ببطءٍ إليهما قبل أن يضع الدلو أرضًا.. ويسير تجاههما..

يتجمد الاثنان مكانهما وهو يقترب منهما، وتتسع حدقتا نسرين في رعب..

يقترب البعبع منهما أكثر فأكثر..

يصيح أكرم لقدري: أتعلم فيم أفكر؟

يهتف قدري وهو مشلول جسديًا من الرعب: ماذا؟

- نحن أطفال.. أنا لست فاندام وأنت لست جيمس بوند.

- اكتشفت هذا الآن؟

- أتعلم ما هو سلاحنا الوحيد؟

يقترب البعبع بهدوء ويرفع مخالبه..

- ما هو؟.. نحن لا نمتلك أسلحة.

- فكّر أيها الغبي.. ما هو السلاح الوحيد الذي يمتلكه الأطفال.. نحن صغار الحجم وسريعو الحركة.. فكّر.

ينظر قدري لأكرم في عدم فهم ويصرخ الأخير: لنلعب الغميضة..

- فور أن تقول كلمة السر..

يتأهب الاثنان والشبح يقترب.. يريدان منه أن يبتعد عن نسرين قدر الإمكان..

يصرخ أكرم: يا شيخ حرام عليك..

فور أن يقولها يفترق الاثنان ويعدو كلٌّ منهما في اتجاه معاكس للآخر

وهما يصرخان في فزع..

يعدو قدري نحو غرفة المكتب الضخمة ويصعد أكرم السلالم عدوًا متجهًا للطابق الثاني وكلاهما يتذكر إسماعيل يس وعبد الفتاح القصري وهما يهربان من المومياء في الفيلم..

يقف المسخ في منتصف الصالة وهو ينظر إلى المكتبة، وإلى الطابق العلوي.. يخرج أكرم رأسه من وراء سور السلم ويصيح مُخرجًا لسانه: أنا هنا أيها البطيء..

في ذات اللحظة يظهر قدري موليًا ظهره للبعبع ويرقص بمؤخرته: الحق بي لو استطعت..

لوهلة أرادت نسرين أن تضحك وهي مقيدة، أبطالها الصغار المجانين.. حاولت أن تحل قيودها ولكن دون جدوى، في النهاية تحرَّك الشبح وسار ببطءٍ ليصعد السلالم فهتف أكرم: تبًا..

ثم اختفى بعدها.. ظلَّ قدري يراقب الشبح وهو يصعد السلام مسرعًا من خطواته قبل أن يختفي في الاتجاه الذي ذهب إليه أكرم.. فور أن حدث هذا، خرج قدري من المكتبة وجرى صوب نسرين وهو يهمس: كيف أحل تلك القيود الغبية؟..

كانت مقيدة بأحبال خشبية متينة، وتذكَّر هو السندباد في إحدى جولاته عندما طلب منه الساحر أن يحل العقدة في الحبال التي لم يستطع أحدٌ حلها من قبل فاستل سيفه وقطعها، لقد غشَّ السندباد وهذا يجعل من الغش أمرًا مقبولًا.. تلفت قدري حوله باحثًا عن سيوف، لا يوجد سيوف.. سكين طعام

إذًا..

هرع إلى النيش الضخم الفاخر وفتحه ليخرج منه سكينًا صدئًا لكنه أجفل وتراجع للخلف لوجود فئران في الداخل..

عليه أخذ سكين بسرعة ليحل وثاقها، ولكن.. ماذا لو عضه الفأر؟.. أغمض قدري عينيه ومد يده في رعب والتقط السكين ثم فتح عينيه مسرعًا وهو يتنفس الصعداء..

يضع أكرم كلتا يديه على فمه ليمنع نفسه من الصراخ وهو يختبئ في خزانة الملابس، يسمع خطوات البعبع تقترب.. وأبواب الغرف تنفتح واحد تلو الآخر، هو يبحث عنه في الغرفة تلو الأخرى..

ترى هل يبحث في خزائن الملابس؟

تهب نسرين واقفة وهي محرَّرة الأوصال وتحتضن قدري وهي تهتف: يا إلهي لكم أنا أحبك أيها الصغير!

احمرَّ وجه قدري، وتراجع للخلف ناظرًا إليها قبل يرفع حاجبه ويقول: لست صغيرًا.. الاسم هو بوند.. جيمس بوند.

تضحك هي وتحتضنه مرة أخرى، قبل أن يقف الاثنان وينظران للطابق العلوي..

- والآن لنقتل هذا الوغد وننقذ فاندام..

ثم نظرت نسرين إلى قدري وأضافت في تصميم: وأنا سوف أكون المرأة الحديدية..

يفكر قدري لثوانٍ وجدية قبل أن يهز رأسه مصارحًا إياها بلقبها الجديد وتقول نسرين: نحن بحاجة لأسلحة.

يقف الاثنان أمام النيش الضخم ذي السكاكين الصدئة والفئران بداخله ويتبادلان النظرات.. كادت نسرين أن تعطي رد فعلها الهستيري المعتاد عن رؤية الفأرين قبل أن تتذكر أنها المرأة الحديدية وتجبر نفسها على الثبات..

ينفتح باب الغرفة، ويسمع أكرم خطوات البعبع وهي تجول.. يخفق قلبه بعنف.. الخطوات تقترب من الخزانة، يلصق أكرم ظهره في الحائط.. عندما يتحرك الفأر على يده، يعض أكرم لسانه لكي لا يصرخ ويزيح الفأر بعيدًا..

هو حبيس خزانة الملابس مع فأر والبعبع يقترب منه..

تصيح نسرين بعلو صوتها وهي تقف في الطابق الثاني: تعالَ يا ابن الساقطة..

ينبهر أكرم عندما يسمع السبّة، ويسمع خطوات البعيد تستدير راحلًا من الغرفة.. يتنفس أكرم الصعداء عندما يشعر بفراء الفأر على يده مرة أخرى فيجفل ويتراجع للخلف مُحدِثًا القليل من الضوضاء، تتوقف خطوات البعبع، وينفتح باب الخزانة بعنفٍ بعد ثوانٍ، يصرخ أكرم ويتدحرج أرضًا عدة مرات متفاديًا المخالب الحادة التي شقت الهواء مطالبة بعنقه..

يقف الفتى ويعدو خارج الغرفة وهو يصرخ في فزع..

فور أن يخرج من الغرفة يجد نسرين واقفة حاملة سكينتين صغيرتين، يعدو تجاهها ويحتضنها بقوة.. يخرج الشبح من الغرفة ويسير صوبهم..

رافعًا مخالبه، والخنجر يلمع مستقرًا في قبضته..

تهمس نسرين لأكرم: اثبت مكانك.

ينظر لها أكرم.. ثم للبعبع الذي اقترب بشكل مخيف منهم حتى ليكاد يشم رائحته.. رائحه الموت..

يغمغم أكرم: قولي أن لدينا خطة..

يخرج قدري من إحدى الغرف الخلفية في تلك اللحظة وهو يصرخ كالكوماندوز ويقف محاولًا غمد السكاكين التي يحملها في ظهر البعبع، لكنه ينزلق ويسقط ويكاد يغرز السكاكين في جسده هو، يتفادى قدري سكاكينه ليجد ساق البعبع أمامه فيلتف حولها كالمجنون ويعضها بكل ما أوتي من قوة..

في نفس اللحظة تندفع نسرين للأمام وتدفع المسخ بكل قوتها للخلف وهي تصيح بقدري: ثبّت ساقه وكن مطبًا وراءه..

يقوس قدري ظهره فور أن تقول هي هذا، وتدفع البعبع للخلف ليتعثر في قدري ويسقط على ظهره..

يركلها شبح الأوبرا بساقه في معدتها فيندفع جسدها للوراء وهي تبصق الهواء قبل أن تسقط أرضًا محمرة الوجه في الألم.. وتلتفت ذراعا البعبع حول عنق قدري.. يضغط البعبع على عنقه بقوة وتجحظ عينا قدري وهو يجاهد من أجل التقاط أنفاسه، ينظر قدري لعيون البعبع.. تتلاقى نظراتهما لوهلة.. هنا يمد البعبع مخلبه ليغرزه في عين قدري..

ينغرز السكين بأكمله في عنق البعبع وتنبثق دماؤه..

ويقف أكرم متلاحق الأنفاس بعد أن ضرب شبح الأوبرا بالسكين..

يزيد الشبح من قبضته على عنق قدري وهو يسقط للخلف، يحاول الفتى مقاومته وهو يشهق من أجل التقاط أنفاسه، هنا يندفع أكرم وهو يصرخ بجنون ليركل الشبح في عنقه المصاب، يرتخي ذراع البعبع الملتف حول عنق قدري، ومعها يده فيحرر الأخير نفسَه ويقفز للخلف.. يقبض البعبع على قدم أكرم وينظر إليه.. يده على الأخرى تحاول وقف النزيف..

يرى شبح الأوبرا برعي واقفًا ينظر إليه في خذلان، نظرة لم أكن أتوقع منك هذا، قبل أن يهز رأسه ويرحل.. تتسع حدقتا عين الشبح.. وتترك يده قدم أكرم.. وتسقط رأسه للخلف، يغمض عينيه ودماؤه تنساب مكوِّنة بِركة من حوله..

تعتدل نسرين واقفة في ألم وتسير لتقف جوار أكرم، ينضم إليهما قدري.. يقف ثلاثتهم وهم ينظرون لجسد شبح الأوبرا..

- أنت بخير؟

- نعم.. وأنت؟ نعم.

- ماذا عنك؟

- تبًّا لك!

- تبًّا لك أنت أيضًا!

- تبًّا لكما أنتما الاثنان.

- لقد انتصرنا على البعبع.

ينظر الثلاثة لبعضهم البعض..

تنقر نسرين كعادتها على أنف أكرم كلما حاولت أن تشاكسه وتقول: أنفك مثل أنف بينوكيو.

يضحك الاثنان ويغتاظ أكرم..

قبل أن يخرجوا من القصر.. غير عالمين بأن الكوابيس ستطاردهم للأبد بعد تلك الليلة..

يخرجون من القصر.. متجاهلين النظر لعيون التماثيل.. التي يشعرون أنها - أيضًا - سوف تطاردهم بنظراتها للأبد..

يقف قدري وينظر للخلف، قبل أن يخرج مع رفيقيه ويقول: لقد انتصرنا على البعبع.

***

الفصل الرابع العشر

عام ٢٠٢٠

- لقد اقتربنا.

يقولها قدري دون داعٍ لأكرم الجالس جواره في السيارة ينظر للمدينة..

يضيف قدري: ما الذي تتوقع أن نجده؟.. هل تعتقد أن البلدة قد تغيرت؟

- كل شيء يتغير، سوف تسير بنا السيارة وسط الشوارع ببطء.. ولسوف نفكر يا إلهي لشدة ما تغير كل شيء.. سيكون هناك مطاعم شهيرة الآن وكافيهات.. وسنرى الصبية يسيرون مع الفتيات دون قلق في الشوارع، سيكون هناك هواتف محمولة، وبرود ولا مبالاة..

-.. لقد انتهت الثمانينيات في البلدة الصغيرة التي ترعرعنا بها، لكنها - الثمانينيات - ستظل حية بداخلهما أبد الآبدين..

تتقلص معده قدري من وابل الذكريات الذي هجم على روحه وهو يتخيل نفسه يمر بالسيارة جوار البناية التي اعتاد المعيشة فيها، لشدة ما اعتركته الحياة.. لم يعد الصبي الصغير المفعم بالطاقة والخيال.. كل الروتينيات والطوابير والزحام.. كل المسؤوليات المادية والنفاق الاجتماعي وتبادل المصالح، كل هذا الهراء من أجل هدف واحد هو الاندماج في مجتمع لا يأبه، كل هذا كي لا يشير إليه الناس ضاحكين مثلما كانوا يفعلون معه في الفصل، كلا.. تبًا لتلك الأفكار، لقد نجح في حياته وتزوج واستقر وكوّن عائلة وهو فخور بهذا، ويحمد الله عليها.. لقد كبر ليس أكثر.. لكنه يشعر أن الطفل

الصاخب بداخله يعود الآن، مع عودته للبلدة..

يقول قدري وعيناه ترتكزان على الطريق: أتعلم أنهم أغلقوا مصانع الحديد منذ عقود.. لقد هاجر معظم أهل البلدة بعدها بحثًا عن فُرَص العمل.. أهالٍ كاملة رحلوا تاركين بيوتهم، بإمكاني تخيلهم.. مصطفين يقفون بمتاعهم وهناك تعبير من البؤس على وجوههم مثل أهالي الزلزال.. ولقد سمعت أيضًا أنهم قد أغلقوا مخفر الشرطة.. كأنهم كانوا ينتوون محو بلدتنا.. بعض المدن تصبح مهجورة كما تعلم.. لقد انتحرت المدينة اقتصاديًا وسرعان ما تهاوت اجتماعيًا بعدها..

- أنت تابعت أخبار البلدة كل تلك الأعوام؟

- لقد وُلِدتُ بها بعد كل شيء.

يغمغم أكرم: أتذكر تلك الليلة؟.. في قصر سليمان.

- وهل يمكن أن أنساها..

- لقد اعتقدنا أن كل شيء قد انتهى.

- ولَكَم كنا مخطئين.

***

عام ١٩٨٨

يلهث ثلاثتهم وهم واقفون في الشارع.. غير مصدقين لما حدث للتو.. أياديهم ترتعش من الأدرينالين.. من الحماس.. تنظر نسرين ليدها المرتعشة قبل أن تنظر إلى أياديهما ضاحكة وتحتضنهما هما الاثنين غير مبالية بشيء

قبل أن تقول: أنتما أنقذتماني.. لن أنسى لكم مهما حييت..

- نحن الفرسان الثلاثة، واحد من أجل الجميع، والجميع من أجل واحد.

تهز رأسها مواقفة قبل أن تتنهد وتقول: لسوف تنتابنا الكثير من الكوابيس الفترة القادمة، علينا التكالب معًا، كلما كنا وحدنا سنفكر فيما حدث.. لا يجب أن نستسلم للظلام.. علينا أن ننجو من أهوال هذه الليلة.. ونتذكر أننا قد انتصرنا..

يومئ الاثنان برأسيهما، وتحاول نسرين أن تُطبّق ما تقوله وتتخلص من انقباضة قلبها وهي تتذكر البعبع مرتديًا علا..

- والآن علينا إبلاغ الشرطة بما حدث.. عليهم رؤية ما يوجد داخل قصر سليمان بأنفسهم..

***

عام ٢٠٢٠

ضرب أكرم المقعد بيده غاضبًا، قبل أن يهتف: كيف؟ كيف حدث هذا؟.. كيف لم نجد شيئًا في القصر؟.. لم نجد تماثيل.. لم نجد البعبع.. واعتبارهم أننا مخابيل متوهمين.. أتذكُر صدمتنا.. صدمتها هي...

- لقد نجا، وأخفى آثاره قبل أن نعود.

- كيف؟

- لأن الشر يمتلك قوى لا نفهمها نحن.

أغمض أكرم عينيه في ألم، وواصل التذكُّر..

***

كانت الثالثة صباحًا من ذات الليلة، العام هو ١٩٨٨.. وأكرم الصغير يرقد حانقًا في بيت جده، غير مصدق أن البعبع قد نجا وأخفى آثاره.. وأن أحدًا لم يصدقهم، جده اعتبر أن تلك صدمة طلاق والديه.. كان حانقًا لدرجة البكاء، عندما سمع جلبة في الصالة، اعتدل من رقدته ونظر لباب غرفته المفتوح، لقد ترك الضوء، لن ينام أبدًا في الظلام وسيظل يكره خزانات الملابس للأبد.. رأى جده جالسًا فوق الأريكة، خرج أكرم من غرفته وجلس جوار العجوز في صمت..

- أتريد أن تسمع حكايات ما قبل النوم؟

تنهد أكرم.. ووضع رأسه فوق ركبة جده ونام في حضنه، بينما صوت العجوز الهادئ المتحشرج قليلًا يقول:.. والآن.. أحكى لك أحدٌ من قبل حكاية الأرنب والسلحفاة؟.. كلا؟.. حسنًا.. استمع إليّ جيدًا..

كان يا ما كان، في قديم الزمان.. أرنب متباهٍ.. كان سريعًا كالرياح.. ويعشق التباهي دومًا بسرعته.. ولم يستطع أحد الفوز في أي سباق مع الأرنب السريع.. وذات مرة نظر ذَكر السلحفاة للأرنب وهو يتباهى بسرعته وقال: لم لا.. سوف أسابقه.. وبالفعل.. تجمعت الغابة كلها وهم ينتون الضحك ملء شدقيهم لهذا السباق العجيب، وبدأ السباق.. انطلق الأرنب في البدء وزحف السلحفاة.. ولكن الملل والغرور انتابوا الأرنب وهو في منتصف الطريق، نظر للوراء فلم يرَ السلحفاة من الأساس.. وهكذا قرر الأرنب أن يخلد للقيلولة، ولكن قيلولته تحولت لسباتٍ عميقٍ.. غرق الأرنب في النوم، وعندما استيقظ أدرك أنه قد أضاع الكثير من الوقت.. أدرك أنه أخفق.. عدا بسرعة ورأى

أمام عينيه السلحفاة وهو يعبر خط النهاية.. وبيطء صفق أهل الغابة غير المصدقين، وفي تلك الليلة على العشاء.. جلس السلحفاة مع زوجته وأطفاله وهو يحكي لهم ما حدث ويقول لهم: وهكذا، إذا أردت شيئًا عليك أن تقاتل من أجله.. عليك فحسب أن تزحف للأمام..

كان هذا عندما انفتح باب الكوخ فجأة، خلفه وقف الأرنب السريع الغاضب، وهو يحمل في يده مطرقة خشبية عملاقة.. يلهث بعينين حمراوين.. حاولوا الهرب.. لكنهم زحفوا.. بدأ بالزوجة، هشَّم رأسها وجسدها ثم الأطفال بعدها، ليشاهد السلحفاة الزاحف ما يحدث لعائلته.. بعدها رفع الأرنب المطرقة الممتلئة بالدماء عاليًا.. نظر السلحفاة للأرنب.. وهوت المطرقة فوق رأسه لتهشمها.. خرج الأرنب للغابة وهو ثمل في دمائهم ونظر للقمر.. ثم رحل بهدوء..

فتح أكرم عينيه بعد أن بدأ النوم يتسلل لجفنيه، وعقد حاجبيه وقد أيقظت الحكاية الدموية كل حواسه، وأدرك بعد ثوانٍ أنه ينام في حضن المسخ بعد أن انسل لبيتهم وتظاهر بأنه جده، كل ما تطلبه الأمر هو جلباب وغطاء رأس وقليل من الظلام لينخدع الطفل.. كان هذا آخر ما أدركه أكرم قبل أن تظلم الدنيا من حوله..

***

بعد ساعة..

تململ قدري في فراشه، هو لا يستطيع النوم بعد تلك الليلة الكابوسية، هو لن يستطيع النوم أبدًا على حسب ما يعتقد، انفتح باب الغرفة ودخلت

والدته وانسلت جواره تحت الأغطية، شعر بقليل من الاطمئنان وارتمى في حضنها مغمض العينين، هي لا تصدقه لكنها على الأقل تعرف أنه خائف.. رائحتها متغيرة قليلًا.. جسدها متخشب قليلًا.. لكن هذا لا يهم، زاد من عناقه إياها.. شفتاها تقبلان جبينه، تقبِّل عينه، رائحة فمها كريهة حقًّا، تأفف قدري وغمغم: ماما أنا لست بطفل لا تقبليني.

- حسنًا لن أقبلك، سوف أطهوك وآكلك على العشاء.

فتح قدري عينيه في رعب، لقد كان يحتضن البعبع طيلة هذا الوقت.. انساب المخدر لأنفه ورحل وعيه بعيدًا فوزًا..

***

لم تكف نسرين عن البكاء تلك الليلة، ليس لمواجهتهم البعبع في قصر سليمان، بل لعودتها وحيدة دون أهل يطمئنوها في شقتها.. زوج جارتها يبحث كالمحموم عن زوجته، لكنه - الأخرق - لم يصدق حكايتها أن سفاحًا قد اختطف زوجته وحوَّلها لتمثال شمع.. زوج علا أيضًا يبحث ورفض تصديق أن مسخًا يحيا في القصر المهجور قد مزق زوجته إربًا، ترى أين عائلة عامل النظافة المسن، حاولت جاهدة أن تتذكر اسمه دون جدوى وشعرت بالكثير من الأسى من أجله.. الرجل الذي غفل عنه الزمن..

لقد اتصلوا بوالدها وأخبرهم أنه قادم غدًا، تحدث معها عبر الهاتف وأخبرها بطريقة لطيفة أن تكف عن أوهامها تلك، وإن كانت تكره البقاء وحيدة فلقد كان عليها السفر معهم، لكنها هي التي اختارت البقاء وحيدة لإصرارها على رفض زوجته وعائلتها..

فكرت في خالتها، الأرملة التي تعيش وحيدة مثلها دون عائلة لعدم مقدرتها على الإنجاب.. تمنت كثيرًا لو تمكنت من الهرب والعيش مع خالتها..

أجبرت نسرين دموعها على التوقف.. وجلست مرهقة فوق فراشها لتغمغم: غدًا.. سوف أقاتل غدًا.. اليوم أنا مرهقة..

وأغمضت عينيها، النوم قادم الآن.. فقط تتمنى أن يكون بلا كوابيس.. تريد تجرُّع بعض المياه، تقاوم هذا الشعور بسبب الكسل، الفراش يرجوها أن تظل فوقه، لكنها حقًّا ظمآنة..

تتذكر قدري وأكرم وهما يتحديان البعبع من أجلها، وتبتسم.. هناك من يأبه لأمرها بعد كل شيء..

لكنها حقًّا بحاجة لبعض المياه..

تتنهد وتزيح الغطاء، تطأ قدماها العارية الأرض.. وتقبض عليها يد البعبع.. لقد كان أسفل فراشها طيلة الوقت..

يجذبها بقوة لتسقط أرضًا، وقبل أن تقاوم تتلقى لطمة قوية على وجهها فيسقط رأسها ليرتد بالأرض.. لم يرد أن يخدرها، كان يعتبرها سبب كل شيء، والتخدير مريح بالنسبة إليها.. ظل يضرب رأسها حتى فقدت الوعي..

***

وقف أدهم مرتديًا العباءة السوداء والقناع، أمام ثلاثتهم وهم مقيدون، الضمادة مهترئة اللون تحيط بعنقه.. أكرم وقدري ونسرين ينظرون إليه في صمت.. هم في غرفةٍ ما.. غرفة مقفرة ومهجورة تمامًا.. لا يعلمون هل عاد بهم إلى قصر سليمان أم أنهم في مكانٍ آخر.. لا يعلمون كيف نجا؟، كيف

اقتحم بيوتهم واختطفهم من تحت أنف أهلهم؟.. ظلت نسرين تنظر إليه، مدّ يدَه وهو ينظر إليها وتخلص من قناعه.. اتسعت عينا الصبيين وهو يفعل هذا، وظلت عينا نسرين مرتكزة على وجهه.. وجه قاتم لرجل في الثلاثينيات.. رجل عادي بإمكانك المرور جواره في الشارع دون أن تهلع، تخلّص من أنيابه الصناعية ومخالبه.. ومسح الطلاء الأحمر من حول عينيه، ونسرين تنظر إليه بغضب جنوني.. الغضب يتقد في عينيها وقد ميز أدهم هذا الغضب..

ظل ينظر إليها صامتًا، هناك إعياء بادٍ على وجهه إثر الجرح في عنقه، الجرح الذي بدأ في النزيف مرة أخرى.. لكنه لم يبدُ مباليًا كثيرًا بهذا الشأن، هل هو يحتضر؟.. أم أنه ينجو؟.. تساءلت نسرين لوهلة كيف يتمكن من نقلهم دون إثارة اهتمام العامة؟.. هل يتظاهر بأنه عامل قمامة يحمل أكياسًا قمامة سوداء، أم ماذا؟..

ثم انقبض قلبها في خوف عندما واتتها فكرة أخرى، هل سيضعها على المقصلة أمام عيني قدري وأكرم ويقطع رأسها؟.. أنت ترى شيئًا ما بشكل عابر فيترك بصمة في روحك، وهذا ما فعلته المقصلة بنسرين.. كلا.. أنا لا أريد المقصلة.. ظلت تكرر هذا الرجاء الباكي في عقلها، المقصلة هي غرفة الفئران إياها التي أخبرتها بها صديقتها ذات مرة وهما في الابتدائية، ، لقد تخيلت هي غرفة الفئران حينئذٍ.. أجساد مئات الأطفال في غرفة مهجورة مظلمة وهناك آلاف الفئران ذات العيون الحمراء تنهش جثثهم.. تقلصت معدتها بقوة حينذاك، وتقلصت الآن وهي أسيرة سيد غرفة الفئران.. البعبع..

ظلّ ينظر إليهم في صمتٍ، قبل أن يتحدث.. وانتفضوا جميعًا دون اتفاق مسبق عندما سمعوه...

- اعذروا الحشرجة في صوتي.. أنا لم أتحدث منذ أعوام.. أنتم اقتحمتم بيتي.. لكي تنقذوا تلك الفتاة منّي.. هاجمتموني.. ولأول مرة منذ أعوام.. يتصدى لي أحدٌ.. لأول مرة منذ دهور ينتصر أحد عليّ.. أنا لا أستطيع غفران هذا لكم أبدًا..

وجال أدهم بعينيه بحثًا عن برعي دون جدوى، لقد اختفى تمامًا.. يكمل الرجل: لقد أيقظتموني بعد أعوام من السبات.. لقد كان الجانب الآخر هو المسيطر، هو القائد، وكنت أنا سعيدًا بهذا، شبح الأوبرا الذي عاد محمَّلًا بقوى عظمى من الباخرة التي تهيم وسط الظلام.. قوى هائلة تتيح له فعل الكثير من الأشياء بعد أن باركت قوى الظلام الشر بداخله.. آه يا لهذا الشعور.. عندما تأخذ حياة أحد.. تنهي كل أحلامه وطموحاته السخيفة.. ترى أحدًا يسير في الشارع وهو يعتقد أن يومه مهم، ويخطط ويفكر في كل التفاصيل، ثم.. بوم.. فجأة.. تظهر أنت وتنهي كل شيء.. آه يا لنظرتهم الأخيرة قبل الرحيل.. كأنهم يرفضون طيلة الوقت تصديق أن هذا يحدث لهم، أنهم يموتون حقًّا.. ثم تأتي اللحظة الأخيرة.. تمامًا قبل أن ينطفئ البريق في أعينيهم، عندما يعلمون أنهم سيرحلون وأني أنا قاتلهم.. ينظرون إليّ تلك النظرة.. ممتلئة بالحميمية.. بالخوف والعجز المطلق.. مهما حاولت شرح لكم أي شعور بالقوة هذا يعطيني لن تفهموا أبدًا.. ثم أتيتم أنتم، وتصديتم لما كنته، أترون؟ عليّ أن أذيقكم الويل كي يعود هو مرة أخرى.. لقد شعرت به وأنا أركل الكلب.. كنت طفلًا مثلكم.. لكني كنت مختلفًا، كان هو بداخلي المتحكم في زمام الأمور تمامًا وأنا أركل الكلب مرارًا وتكرارًا حتى انطفأ البريق في عينيه وظلت عيناه الفارغتان تحدقان بي.. ثم رحل هو وترك لي

أنا زمام الأمور.. ومرت الأعوام.. ثم ظهر لي هو مرة أخرى.. وأنا في شدة ضعفي وقلة حيلتي.. أنقذني من ضعفي وانتقمت مِن كل مَن آذوني.. وسلبت أرواح الأبرياء.. أتعلمون شيئًا؟.. سَلب أرواح الأبرياء أفضل بكثير من الانتقام فحسب.. هناك نشوة زائدة، كأنها مكافأة.. كنت أعيش كالملك، كان هو - أمير الظلام - يقود حياتي ويذيقني متعًا لا قِبَل لكم بها، ليس متع البشر كلا.. متع الظلام.. وأنت تسلخ أحدهم وترتدي جلده.. وتأكل كبده.. آه.. أنتم سلبتم كل هذا مني.. انظروا إليَّ.. أنا أتحدث مرة أخرى.. أنا رجل عادي.. عليه أن يعود، وأنا أعلم.. أنا أوقن من عودته، بعد أن أذيقكم الويل.. سوف تحيون مدى حياتكم في ألمٍ بسببي.. آه لكن أنظر إليكم.. أنتم أطفال بعد كل شيء.. دعوني أقص لكم حكاية قبل النوم.. لأنكم سوف تنامون بعدها، لقد صنعت توابيت ثلاثة لكم، ولسوف أدفنكم بها أحياء.. لكن ليس قبل أن أحكي لكم حكاية ما قبل الدفن حيًا.

كان يتحدث بهدوء، بصوت رتيب دون أدنى تعبير على وجهه، وأردف: كان يا ما كان.. في قديم الزمان.. فتى يدعى الشاطر حسن.. وقد كان يعيش في القرية، كان صيادًا.. وبارعًا في حرفته.. وذات يوم كان يسير في الغابة عندما رأى ست الحسن والجمال.. وقد وقع في حبها.. وأراد الزواج منها.. لكنها كانت ابنه الملك.. وعندما ذهب حسن للملك وطلب يد ابنته نهره الأخير متعجبًا ومستنكرًا.. ولكن حسن لم ييأس وظلَّ مثابرًا فقال له الملك: أحضِر لي جوهرة علي بابا وحينئذ سأعطيك ابنتي.

وانطلق حسن في رحلته يبحث عن جوهرة علي بابا فوجدها في معدة سمكة في البحر قُربَ كهف الأربعين لصًا.. فأخذ حسن الجوهرة وأعطاها

للملك وتزوج ست الحسن والجمال.. التي لم ترد الزواج به، ولكن رغبة والدها كانت فوق كل شيء.. وفي ليلة زواجهما قيَّد حسن ست الحسن والجمال في فراشهما.. وأخرج سيفه وقال لها: سوف أذيقك عذابًا مريرًا قبل أن أمزقك إربًا فأنتِ الآن مِلكي..

وبعدما انتهى الشاطر حسن وقف في كوخه متجاهلًا جثة ست الحسن والجمال فوق فراشه.. كان ملطخًا بدمائها وأشلائها.. ثم رآهم في الغابة.. الأربعين لصًا وقد لفظهم البحر للشاطئ.. أجسادهم المتعفنة تسير للأمام، عيونهم بيضاء بلا سواد.. أعناقهم منتفخة وجلدهم أزرق.. يرفعون الخطاف والفأس والسيف ويسيرون صوب حسن.. وقد جاءوا من أجل الجوهرة، وكان انتقام الأربعين لصًا، مريرًا، فصلبوا حسن وقطعوا يديه وساقيه في الأول وتركوه أيامًا للطيور تأكل من لحم جسده قبل أن يقطعوا رأسه ويعودوا بها للبحر..

انتهى أدهم من حكايته، ونظر إلى وجوههم.. بدا لنسرين أنه يفعل رمزيًا ما يفعله حرفيًا.. يشوِّه طفولتهم..

- ربما تريدون مني أن أحكي لكم حكاية «بياض الثلج» وما فعله بها الأقزام السبعة عندما وجدوها نائمة، أو حكاية ذات الرداء الأحمر والذئب، بعدما التهم ساقها وتركها تهيم في الغابة حاملة رأس جدتها..

تجمدت الدموع في عين قدري، وحاول أكرم ألا ينظر لأدهم.. أرادت نسرين أن تصرخ: «كفى».. إلا أن فمها المكمم منعها..

وقف أدهم وانتفض ثلاثتهم فور أن فعل هذا، أشار للتوابيت بيده وقال:

لقد حان وقت النوم يا صغار..

***

الفصل الخامس عشر

إنه وقت اللعب يا صغار، سوف يحملكم الذئب الكبير والشرير واحدًا تلو الآخر وأنتم تشاهدون ما يحدث شاعرين بالعجز.. سيحمل نسرين الجميلة، نسرين الفاتنة.. بغموض وأسرار الأنثى.. الكائن المهيب الذي همتما أنتما الاثنان به حبًا، سوف يحملها ويخرج بها من الغرفة.. من قبو سليمان.. سيذهب بها للحديقة، يرقدها جواره وسط ظلام الليل.. آه الغسق بدأ، ربما يراهم أحد.. كذا تأمل نسرين، لكن لا بشر يستطيع رؤية ما يحدث في حديقة سليمان باشا الآن، كان بإمكانه الحفر وحيدًا، لكنه يريدها أن تشاهد قبرها، ربما أرادها أن تسليه.. لا يجب أن نظلمه.. يحفر هو.. يحفر ويحفر.. قبل أن يختفي قليلًا ويعود حاملًا التابوت.. تحاول نسرين ألا تبكي، لا تريد له أن يراها ضعيفه تتوسل.. تبًا له، يحملها ويضعها في التابوت.. ينظر إليها نظرة أخيرة.. تحدق هي به في كبرياء وعناد، يغلق التابوت عليها وفور أن يحدث هذا تحاول هي الصراخ، فزع جنوني.. رهاب الأماكن المغلقة، الشعور بالعجز وهي مقيدة.. التابوت ضيق ومُحكَم، التراب يتساقط فوق التابوت، هو يرمم الحفرة العميقة الآن، بعض من التراب يتخلل التابوت ويسقط على وجهها، هي تدفن حيَّة في تلك اللحظة يا صغار، أنتم من أردتم اللعب، وهل يوجد لعبة أفضل من الدفن حيًا؟.. يصرخ عقل نسرين: هذا لا يحدث لي حقًا، هذا لا يحدث لي حقًا..

لكنه يحدث لها، ولا يوجد شيء بإمكانها فعله للمقاومة..

متى سينتهي الأكسجين؟.. متى سوف تختنق؟.. الفتحات الخشبية اللعينة

في التابوت التي تسلل منها التراب سوف تسمح لها بالتنفس..

ستظل هكذا لأيام.. ربما شهور.. أعوام.. تتحلل ببطءٍ، تموت من الجوع والظمأ، وهي وحيدة في الظلام.. يواصل هو ردم الحفرة في الحديقة.. ثم يعود كي لا يمل الصغيران وهما ينتظران دورهما في اللعب..

ويفعل المثل مع قدري.. قدري الذي بكى.. وبلل نفسه، وأصابته - للمرة الأولى - نوبة من الشهيق والزفير.. لم يكن قادرًا على التقاط أنفاسه من الرعب.. قدري الآن في التابوت.. يرقد وحيدًا، يقف الشرير ويردم الحفرة..

- نحن أطفال يا عمو.. كنا نلهو فحسب.. أرجوك سامحنا، بإمكانك قتل من تريد.. لن نقف في طريقك أبدًا.

لكن «عمو» لا يهتم.. «عمو» يواصل ردم الحفرة..

الظلام يحدق بقدري، يبتسم له ويشد أذنيه، يدغدغه ويعتصر جسده، يحتضنه بعنف، يجثم فوق ساقيه فلا يستطيع الأخير الحركة.. الظلام يغني ويرقص.. يقدّم فقرته الخاصة على المسرح مثل فطوطة في الفوازير، ذات مرة رأى قدري فطوطة وهو في المصيف مع أهله، كانوا في المسرح.. كان فطوطة أكبر حجمًا من حجمه الطبيعي في التلفاز، لكن شاربه كما هو.. وظلَّ قدري يضحك وهو يراقبه في استمتاع، ترى هل اختطف أحد فطوطة ودفنه حيًا؟.. أم أن هذا يحدث لقدري فحسب الآن..

أكرم يجلس في مقعده، مقيدًا.. ينتظر دوره..

لقد أخذ الوحش نسرين وقدري.. لقد أخذ الاثنين الوحيدين في الحياة القادرين على جعله سعيدًا.. يرتجف أكرم من الأهوال التي يمر بها..

يتذكر كلمات جده، أنت لست طفلًا.. أنت رجل وعليك أن تكون صلبًا.. نعم لقد تطلَّق والداك..

يقول الفتى لنفسه، أنت لست طفلًا.. أنت رجل.. أنت صلب.. لقد تطلق والداك.. واختطفك الوحش.. وسيدفنك حيًّا.. ترى ما الذي سيقوله جده لو عَلِمَ بكل هذا؟.. سيخبره الملاكم العجوز أن يقاتل حتى اللحظة الأخيرة.. كن مثابرًا.. لا يوجد ألم.. هيًّا.. لا يوجد ألم.. تحمّله وانكر وجوده.. هذا الألم اللعين..

ما الذي فعله «ميل جيبسون» في فيلم «السلاح القاتل» - والذي أصر موظفو أنيس عبيد بترجمته بـ «شرطيان في الجحيم» - لقد كسر ذراعه كي يتحرر من القيود عندما كانت العصابة تهم بتعذيبه، هيًّا.. أنت صلب.. لا يوجد ألم.. يغمض أكرم عينيه.. يلوي إبهامه.. يكسره في لحظة شجاعة، لا يصدق.. يطلق صرخة عظيمة تكتمها الكمامات على فمه فلا يسمعه الوحش.. يبكي.. يكاد يفقد وعيه من الألم.. لكنه يرى جده يصيح: لا ألم.. لا ألم.. حتى الجولة الأخيرة.

يميل رأس أكرم حتى يكاد يسقط، عيناه تنغلقان..

- لا ألم.. لا ألم.. قاتل.. أصدقاؤك بحاجه إليك.

يفتح أكرم عينيه.. يحرر يده، يحرر الأخيرة.. يفك وثاق قدميه.. يهرع للخارج.. يخرج من القبو.. يهتف بالتماثيل التي تحدق به: «تبًّا لكم أنتم أيضًا!»

يخرج للحديقة، هو ليس خائفًا الآن.. هو غاضب..

يرى الوحش الوقف وهو يرمم الحفرة.. أترى هذا قدري أم نسرين في الحفرة؟

يعدو أكرم نحو الرجل.. نعم هو رجل.. مجرد رجل شرير ومجنون.. لا تخافه..

يرفع الدلو المحمل بالسائل المغلي الغامض، لقد كان يغلي جوار نار المدفأة في القصر.. وأخذه أكرم دون تفكير.. يصرخ كمحاربي الأدغال، يلتفت الرجل إليه، يلوح أكرم بالدلو.. ويتناثر السائل بغزارة على أم رأس الرجل.. ووجهه.. وجسده.. يغرقه تمامًا.. هنا يمسك أكرم الدلو ويطوحه ليضرب به رأس الرجل الذي سقط للوراء في الحفرة على التراب جوار التابوت..

سمع قدري شيئًا ضخم يرتطم بالتابوت قبل أن ينكسر الخشب، هناك جسد شديد السخونة فوقه، لكنه يرى القمر في السماء..

وأمام القمر يظهر وجه أكرم.. يقفز الفتى داخل الحفرة.. يمد يديه ليحل وثاق قدري، تقبض عليه يد المسخ.. نعم هو مسخ الآن.. شكله أضحى غريبًا والسائل عليه.. عيناه متسعتان في ألم وعدم تصديق.. يصرخ أكرم.. لكن يد المسخ تتخشب.. عيناه متسعتان وفمه مفتوح في صرخة صامتة.. يسحب أكرم يده، ويحرر قدري.. ويساعد الأخير على الوقوف، يقفز الاثنان محاولين الخروج من الحفرة دون جدوى، فيتسلق أحدهما الآخر ويساعده على الخروج بعدها..

يقف الاثنان على حافة الحفرة.. ينظران إلى الوحش..

يغمغم قدري وهو مبهوت الأنفاس: إنه يتحول لتمثال شمع!

ثم ينظر إلى قدري ويضيف: الآن سيصدقوننا.

- تبًا لهم!

يقولها أكرم ويواصل ردم الحفرة مضيفًا: لندفنه حيًا.

***

- نسرييييين

يصرخ الاثنان باسمها وهما يبحثان في كل أرجاء الحديقة.

- نسرييييين أين أنت؟

يبحثان في كل صوب..

- نسرييييين..

تبزغ الشمس.. وهما يبحثان عن صديقتهما..

وبعد ساعات أدرك الاثنان أنهما غير قادرين على تحديد مكانها، أدركا أنهما بحاجة لمساعدة الكبار بعد كل شيء..

وأحضرا الشرطة.. لكن الحديقة كانت حقًا كبيرة كالمتاهة، وكالعادة لم يكن هناك أحد مستعدًا لتصديقهم بالدرجة الكافية لتمشيط الحديقة كلها، لكنهم وجدوا تماثيل الشمع بالداخل.. وأدركوا أن جزءًا من حكاية الصغار حقيقي.. جرائم الشمع، هذا هو عنوان المقال التي نُشِرَ في الصحف عن جريمة قتل المعلمة وربة البيت وتحويلهما لتمثالي شمع من قِبَل مخبول، البعض شك في الأطفال أنفسهم، ولهذا رحل قدري مع أهله، والدته لم تتحمل نظرات الناس إليهم كأنهم مجاذيب..

وبحثت الشرطة كثيرًا عن مرتكب تلك الجرائم، وبحثوا في الحديقة رغم عدم اقتناعهم حقًّا بحكاية الأطفال عن صديقتهم المفقودة والرجل الشرير، حاول أكرم وقدري تذكُّر مكان الحفرة التي دفنوا فيها المسخ.. دون جدوى، الأرض كلها طينية متعرجة وليست خضراء، لم يكن من السهل تحديد مكانها.. وللمرة الأخيرة لم يصدقهم أحد.. كان هناك اتهامات غير صريحة من والد نسرين أن الوغدين الصغيرين قتلا ابنته، لكنه كان يعتقد حقًّا في قرارة نفسه أن ابنته المكتئبة قد هربت من البيت أخيرًا، وهذا ما أدلت به زوجته للشرطة ما قلل من حماستهم في البحث عن الفتاة..

بكى الطفلان وتوسلا، وحاولا إقناع الجميع.. وبحثا كثيرًا في الحديقة..

ولم يجدا نسرين..

***

تغيَّر كل شيء بعد فقدانهما لصديقتهما، ولم يقوَ أيٌّ منهم على ذِكر اسمها أبدًا بعد تلك الليلة، ظلا يحلمان بها لأعوام.. ولم تبارح أفكارهما أبدًا.. لقد حفرت نسرين اسمها داخل قلوبهما في البداية، وبعد تلك الليلة.. حفرته في روحهما..

***

الفصل السادس عشر

عام ٢٠٢٠

غفل أكرم وهو في السيارة بينما تثاءب قدري وهو يحافظ على سرعة السيارة بينما عجلاتها تنهب الطريق السريع لبلدتهم..

نظر قدري إلى أكرم النائم جواره، جفون الأخير تتحرك بسرعة جنونية.. هو يحلم..

في الكابوس عاد أكرم للعاشرة من عمرة مرة أخرى، كان يبكي وهو يحتضن نسرين ويرجوها ألا ترحل، كانت تبكي هي الأخرى وتقول: ولكني برج القوس.. نحن نحب السفر والترحال.. لا بُدَّ أن أرحل..

قدري كان يقف جوارهما وهو يحاول التظاهر بالصلابة لكن الحزن بادٍ في عينيه..

ولكن لماذا يقف ثلاثتهم في متحف الشمع؟ ولماذا يتخاطرون بأفكارهم دون تحريك شفاهم؟.. لا يوجد منطق في الأحلام على أي حالٍ..

يهتف أكرم لها: لو رحلتِ سوف نرحل نحن أيضًا، وسوف ترحل زوجتي وابني من بَعدك يا نسرين..

- أنا آسفة يا أنف بينوكيو.

اجتاح الألم قلب أكرم عندما سمعها تنادي بهذا اللقب وبكى مرة أخرى..

هنا حاولت نسرين الحركة كي ترحل دون جدوى.. حركت عيناها فحسب.. وسمع أكرم أفكارها: أنا لا أستطيع الحركة..

دموعها تنساب فقط على وجنتيها وهي متخشبة، وأدرك أكرم أنهم تماثيل شمع.. طيلة عمرهم وهم تماثيل شمع تحلم وتتخيل أنهم مثل البشر الذين يزورونهم في المتحف ليشاهدوهم لدقائق قبل أن يرحلوا ناسين أمرَهم تمامًا..

فتح أكرم عينيه وشهق.. لم يسأله قدري عمَّا حلم به.. فقط واصل القيادة..

وغمغم أكرم: يا إلهي أنا أفتقدها.. أنا أفتقد...

ثم صمت قليلًا كأنه يستجمع كل قواه كي يقدر على نطق اسمها، وفور أن فعل هذا اعتصره الألم: أنا أفتقد نسرين..

***

فور أن وصلت السيارة بهم للمدينة انتصب ظهر الاثنين تلقائيًا في مقاعدهما..

تدور عجلات السيارة بهدوءٍ..

كأنها تطلب الإذن من المجهول كي تدخل البلدة..

غمغم قدري مبهوتًا: تبدو حقيقيًا كمدينة أشباح

أمامهم لافتة: ادخلوها آمنين

وراءها يرتمي شارع طويل خالٍ إلا من بعض المارة واقفين.. متسمرين كأنما الزمن قد توقف بهم..

وأضاف قدري: لقد غفل الزمن عن البلدة.

لم يعلّق أكرم، ربما في توقيت آخر كان لينبهر، لكنه لا يفكر سوى بماجي

ومازن الآن..

يدير قدري المقود وتنصاع عجلات السيارة مجبرة وإن بدا أنها لا تريد دخول المدينة..

هنا قال أكرم وهو ينظر لمطعم على اليسار: تبًا لم يتغير شيء، نفس المطعم.. نفس اللون.. نفس الباب.

توقفا أمام سور مدرستهما، الخفير العجوز يجلس بنفس جلبابه الذي كان يرتديه وهم أطفال.. يهز قدري رأسه ويقول: كيف هذا؟ هل توقف الزمن؟

- لا أعلم.

يواصلان رحلتهما.. هناك فتي يقف جوار فتاة وينظر الاثنان لدار العرض السينمائية في صمت كأنهم مترددان بشأن الدخول أم لا، لن يترددا بشأن اختيار الفيلم لأن صالة العرض لديهم لا تعرض سوى فيلم واحد فحسب، ويكون فيلمًا قديمًا للغاية.. أو هذا ما كان على الأقل..

تتوقف السيارة بهما أمام مسجد ممتلئ بالمصلين وقد ركعوا بالخارج للزحام، كأنهم في صلاة الجمعة..

يتنهد قدري ويزيد من سرعة السيارة في الشوارع الخالية.. هو يتذكر الطريق لقصر سليمان..

تصل بهما السيارة للقصر..

ترجل قدري من السيارة ومعه أكرم ووقف الاثنان ينظران لقصر سليمان باشا..

القصر العتيق ينظر إليهما مبتسمًا في هدوء، أهلًا يا أطفالي.. لقد كنت في انتظاركما.. انتظرت طويلًا، وها أنتما ذا..

يغمغم قدري: هناك إشاعات أنهم كانوا سيحولون القصر لمتحف قبل أن تتخلى الحكومة عن البلدة.

- أتعلم أي إشاعات أصدّقها أنا؟ إن هذا القصر يمتلك طاقة نفسية أفقدت سليمان باشا عقله وجعلته يفتك بعائلته، وأن تلك الطاقة النفسية قد جذبت البعبع إلى مدينتنا..

- لقد أتى البعبع مع السيرك.

- لكنه لم يرحل معه.. لقد اختار البقاء في قصر سليمان.

ينظر أكرم بعدها للقصر.. هل زوجته وابنه بالداخل؟..

كيف نجا المسخ؟.. لقد حوّلوه لتمثال شمع ودفنوه حيًا، لكنهم لم يضعوه في تابوت، التوابيت التي صنعها كانت صغيرة الحجم بشكلٍ خبيثٍ لتسعهم هم فحسب، لقد ردموا الحفرة، لعلّه لم يتحول لشمع.. وخرج من الحفرة.. لأن الشر دومًا ينجو..

غمغم أكرم: لا مخاطرة تلك المرة.. أعطِني هاتفك.

- ها هو.

- افتحه.

- حسنًا.. ما الذي ستفعله؟

- قدري، افتح لي هاتفك بالله عليك أنا غير مهتم بخياناتك الزوجية

ورسائلك المشينة التي تحتفظ بها على هاتفك.

- كـ...كيف عرفت؟

- لأنك أحمق..

يمسك أكرم هاتف قدري ويخرج هاتفه يتابع: سوف أربط هواتفنا سويًا عن طريق برنامج، سيتيح لي تتبعك ويتيح لك تتبعي عن طريق «الجي بي إس» وبهذا لن نضل طريقنا عن بُعدٍ.

- حسنًا.. ألا ترى أنه كان من الأفضل إحضار أسلحة بدلًا من خطة الهواتف تلك.. لماذا لم نحضر أسلحة؟

- لأننا لسنا في أحد أفلامك.

سار الاثنان حول القصر قبل أن يعودا للسيارة، لأن هناك رجلًا يقف في الشارع المقابل ينظر إليهما وهو ثابت في مكانه، قال قدري: لننتظر حتى غروب الشمس.. ثم ندخل بعدها.. لا نريد لأحد أن يوقفنا في وضح النهار

تأفف أكرم، لا يريد إضاعة وقت.. لكنه يعلم أن صديقه محق..

ودون اتفاق مسبق ترك الاثنان السيارة وتجولا في البلدة الصغيرة، كأنهما قد استسلما أخيرًا لذكريات طفولتهما التي احتضنتهما في حنان.. وقسوة.

***

لا يعلم أيٌ منهما مَن الذي استوعب الحقيقة المفزعة في البداية..

ربما عندما رأيا الكلب المتخشب الذي يرفع رأسه للسماء كأنه ينبح بصمت..

أو ربما عندما لاحظا أن الرجل الواقف في الشارع لا يزال متسمرًا مكانه.. ووجدا الفتى والفتاة لا يزالان يقفان أمام صالة العرض السينمائية..

أدرك الاثنان أن هناك سببًا لعدم تغيُّر أي تفاصيل في البلدة..

وفهما لماذا ظلَّ الخفير محتفظًا بجلبابه..

بلدتهما الصغيرة التي نسي الجميع أمرها..

لم تتحول لبلدة مهجورة..

قال أكرم قدري في إعياء ورعب: لقد قتل من بقيوا في البلدة.. لقد.. لقد قتلهم جميعًا.. لقد حوَّلهم.. لقد حوَّل البلدة بأكملها إلى متحف شمع..

***

أحيانًا أعتقد أن العالم بأسرِه لن يتأثر لو اختفت بلدتنا من الوجود..

***

شعر كل من أكرم وقدري وهما يجولان في مدينة الشمع أن المسخ قد يكون في أي مكان.. يراقبهما.. ينتظرهما.. تلك بلدته الآن وليست بلدتهما..

يدخل الاثنان صالة العرض السينمائي وهما ينظران بانبهار لتمثال مُحصِّل التذاكر والكشاف في يده، هناك ابتسامة متخشبة على وجهه..

في القاعة تجلس التماثيل تنظر للشاشة، هناك تمثال لفتى يحتضن فتاته في الركن الخلفي، بينما في الأمام تجلس عائلة ضاحكة يتناولون «الفيشار»..

انقبض قلب أكرم وقال: يا إلهي!

يخرجان ويمران مرة أخرى جوار المسجد حيث تماثيل المصلين الراكعة..

- لقد تمكن من البلدة كلها.

- ولكن كيف؟.. بالله عليك كيف؟..

- لا.. آه أنا لا أعلم..

- ماذا عن الزوار الذين يأتون للبلدة؟.. ماذا عن أقارب من كانوا يحيون هنا؟.. ماذا عن...

قاطعه أكرم وهو يحاول الاحتفاظ بعقله وسط هذا الجنون: أنت قلت إنهم أغلقوا مخفر الشرطة وأن البلد انهارت اقتصاديًا، وأن الكثيرين قد هاجروا البلدة.. ومنذ متى يسأل الأقارب عن بعضهم ها؟.. لقد نسي الجميع بأمر البلدة ومن اختاروا البقاء فيها.. وأنت تعلم أن أحدًا أبدًا لن يزور البلدة لو لم يكن هنا..

ثم أدار أكرم عينيه ونظر لتمثالي طفلين عائدين من المدرسة، بزيهما الرسمي وحقائبهما وشعر بغصة في حلقه وهو يكمل: كما أنه لك أن تتخيل مصير من يزور بلدة الشمع..

تنهد أكرم بعدها وأضاف: طالما هو يدفع فواتير البلدة من كهرباء ومياه وخدمات.. لن يأتي أحدٌ أو يهتم.. وطبعًا هو يمتلك كل المال هنا الآن.. الآن نحن نفهم لماذا هو اختار البقاء هنا.. لقد نجا البعبع في تلك الليلة، خرج من الحفرة.. وفتك ببلدتنا..

***

عادا إلى القصر.. وهما يشعران بهذا الشعور القاتم؛ أن عيون التماثيل تتابعهم في كل صوب..

التفوا حول سور القصر.. نظر قدري لأكرم، الذي عقد يديه.. رفع قدري قدمه ووضعها بين قدمي أكرم وبدأ يتسلق السور بينما أكرم يرفعه لأعلى.. يلهث قدري وهو يحاول التثبت بالسور، يحتضنه وهو نائم فوقه داعيًا الله ألا يسقط، ثم مدَّ يده ليعاون أكرم على التسلق..

تسلق أكرم السور، وجلس فوقه جوار قدري.. تنهد الاثنان قبل أن يقفزا من فوقه ليسقطا في الحديقة..

تأوَّه قدري وغمغم: آه لقد لويت ذراعي.

ووقف وهو يهز ذراعه محاولًا التخلص من الألم..

أكرم كان صامتًا، ينظر للقصر.. يتذكَّر بحثهم عن نسرين، وعدم إيجادهم لها، ماذا لو حدث نفس الأمر الآن؟.. ماذا لو أن عائلته مدفونة في الحديقة الضخمة؟.. ماذا لو لم يجدها؟.. ماذا لو لم يعلم ما الذي حدث لهم؟..

يتجول أكرم وقدري في الحديقة، ينظران إلى الأرض الطينية والنبات المتحلل، الأشجار الكئيبة، هنا ظهر لهما كلب نحيل مصاب بالهزال والاكتئاب..

التقط قدري شيئًا ما من على الأرض ورماه صوب الكلب الذي جرى مبتعدًا..

- على الأقل لا يزال هناك كائن واحد حيًا.

- أتمنى ألا يعود بعائلته، وأتمنى ألا تكون عائلته من الأصحاء.

يقولها أكرم، وهو يشعر أنه لو لم يتحدث.. لو لم يحاول إلقاء دعابة كما كانا يفعلان فيما سبق، سيفقد عقله بالتأكيد حينئذٍ وسط كل ما يحدث..

ينظر الاثنان لبوابة القصر المغلقة، قبل أن يذهبا للبوابة الخلفية.. هنا توقف الاثنان وهما ينظران لركن مهجور من الحديقة التي ذكرتهما بالمقابر في تلك اللحظة، أمامهما استقرت المقصلة، دماء جافة عليها، وجوارها على أرضية الحديقة استقرت عشرات الرؤوس المقطوعة.. بعضها متحلل وبعضها هيكل عظمي بالكامل.. غمغم قدري بأنفاس متلاحقة: الهول!

ظلَّ أكرم ينظر للمشهد الكابوسي صامتًا، يتخيل البعبع وهو يقيد ضحاياه ليلًا على المقصلة.. تلك المرة قاطن القصر هو الذي فتك بالعاملة مستخدمًا تلك الأداة الجهنمية وليس العكس.. ابتلع أكرم ريقه.. هذا الوحش القادر على ارتكاب تلك المجازر هو الذي أخذ عائلته.. عليه أن يقاوم التأثير النفسي لكل ما يراه الآن.. عليه أن يجدهم.. يكسر أكرم نافذة مجاورة للباب، ويتسلل منها لداخل القصر.. يتبعه قدري..

القصر ظلَّ على حاله.. كما كان منذ ثلاثين عامًا..

يقف الاثنان في صالة القصر بعد خروجهما من القبو..

هناك ثعبان يزحف بنعومة في الركن المظلم، يعقبه ثعبان آخر.. لكنهما لا يريانه..

يضيء قدري - وكذا أكرم - الضوء من هاتفه المحمول ويتلفت حوله قبل أن يقول: كلما تغيرت الأشياء كلما ظلت على حالها.

لا يرد أكرم، يواصل بحثه.. يصعد للطابق الثاني، ويبحث في غرفة تلو الأخرى وهو يسمع صوت خطواته الرتيبة تتردَّد في المكان، ينظر لخزانة الملابس التي اختبأ بها منذ ثلاثة عقود..

قدري يسير وراءه..

يعود الاثنان لغرفة الضيوف، يذهب قدري للمكتبة ويبحث هناك..

صمت.. صمت مطبق في كل صوب..

لكن أكرم يشعر أنه هدوء ما قبل العاصفة..

يريد أن يبكي وهو يفكر في ماجي برائحتها التي تسكن قلبه، ومازن.. إصبعه الصغير الملتف حول إصبعه وهو رضيع.. أين أنتم يا أحبائي؟..

يتلفت أكرم حوله.. تلتقي عيناه بعيني قدري.. تنساب دموع أكرم.. عندما يسمع صوت الخطوات، خطوات بطيئة لشخص يتحرك في غرفة النوم الواسعة المستقرة بآخر الردهة في الطابق الثاني..

يهرع الاثنان للغرفة دون خوف، غضب يعتليهما فحسب..

يقف أكرم أمام الغرفة.. يمد يده نحو المقبض ويديره..

ما الذي يوجد وراء الباب المغلق؟..

تتسارع دقات قلبه والباب ينفتح..

- تبًا!

تماثيل شمع عدة بالداخل..

- هو هنا.. يراقبنا من مكانٍ ما..

كذا يهتف أكرم وهو يندفع داخل الغرفة.. ويسير بين تماثيل الشمع.. تمثال لرجل عجوز متهالك، تمثال آخر لفتاة.. جواره تمثال لامرأة تصرخ.. أتلك تماثيل أم موتى؟.. تتسع عين قدري وهو ينظر لتمثال يمثله وهو طفل.. وجواره تمثال لنسرين..

- لقد ظلَّ يتذكرنا!

- يقترب أكرم من نسرين ويغمغم بحزن: أتعتقد أنها هي أم أن هذا تقليد لها؟

- لا أعلم.. لنرحل أرجوك.

يقولها قدري وهو واقفٌ ويبدو مرتعبًا على عتبة الباب..

يسير أكرم بين التماثيل ولا يفت على قدري أن صديقه يبحث في رعب ويأس عن تمثال لماجي ومازن.. هناك تموُّج لأحد نائم أسفل الأغطية على الفراش..

يمد أكرم يده ويزيح الغطاء بسرعة.. يطالعه وجه تمثال شمع.. له شخصيًا وهو طفل.. يتراجع أكرم ويغمغم: يا إلهي!

هنا تحرك العجوز بعدما كفَّ عن التظاهر بأنه تمثال وهو يرفع بَلْطَة عاليًا محاولًا أن يهوي بها على عنق أكرم الذي تراجع للخلف لتهوي البلطة وتضرب كتفه.. صرخ أكرم ألمًا وهو يمسك عظام كتفه التي تهشمت وانسابت دماؤه.. وهتف قدري: يا إلهي الرحيم!

أمامهما يقف أدهم منحني القامة، أشيب الشعر على جانبي رأسه بعدما تساقط أغلبه، لحيته البيضاء طويلة.. ملابسه رثة ومهترئة، رائحته كريهة بشدة.. التجاعيد تكاد تمزق وجهه.. عجوز في السبعينيات من عمره.. كل شيء فيه قد تغيَّر، عدا عينيه.. عيناه لم تتغيرا أبدًا.. نفس العينين منذ ثلاثين عامًا..

كلما تغيرت الأشياء كلما ظلت على حالها..

..نظر أكرم لأدهم.. الشر لا يموت بسهولة، لقد فشل ليلتها للمرة الثانية في قتل البعبع.. وخرج الرجل من قبره.. وظلَّ الشر حيًا في قصر سليمان.. يجلس.. ينتظر.. ظلَّ يحيا في القصر طيلة تلك الأعوام.. بعدما أصبح هو سيد المدينة..

مكث الشر في قصر سليمان، وأهلَكَ البلد كلها..

..صرخ أكرم بغضب، لقد فشل في قتله تلك الليلة وفقدَ عائلته بسبب هذا، هذا هو الوحش الذي أخذ منه ماجي ومازن ونسرين..

اندفع أكرم للأمام ودفع العجوز ليسقط أرضًا، لكمه بيده السليمة عدة مرات، أخذ منه البلطة، نظر العجوز لوجه أكرم.. إلى عينيه..

بدا لأكرم أن البعبع يتبين ملامحه عن قُرب، ويتعرف عليه.. الصبي الصغير قد عاد، بدا لأكرم أن البعبع مندهش لرؤيته..

وبطرف عينه رأى أدهم برعي أخيرًا يقف في الركن، ينظر إليه، لقد ظلَّ ينتظره لثلاثين عامًا..

- أين عائلتي؟

- لا أعلم.. لكن ربما عليك مقابلتي عائلتي أنا.

فور أن قالها العجوز، تحرك أحد التماثيل وخدش وجه قدري الذي هتف: بعضهم لا يزال حيًا..

التمثال الذي تحرك كان لفتاة شديدة النحافة طويلة الأظافر تضحك بشراسة وجنون.. وانقضت بوجهها الشاحب على أكرم الذي أجفل، هنا وضع البعبع إصبعه على ذراع أكرم المصاب وصرخ الأخير، احتضنته الفتاة من الخلف وهي تخدش وجهه.. سقط أرضًا ثم أجبر نفسه على الوقوف.. قدري يقف في رعب مشلول الحركة يشاهد ما يحدث في جزع وانبهار.. يصيح أكرم وهو يعدو للخلف ليضرب الفتاة المتمسكة به في الحائط عدة مرات حتى تفلته..

يقف البعبع.. ويسير بهدوء صوب قدري الذي تراجع في خوف وأفسح له مكانًا للخروج..

تسقط الفتاة أرضًا فيضربها أكرم على رأسها لكنها تقف لتنقض عليه مرة أخرى.. هو بالبلطة عليها ليشج رأسها.. ثم وقف يلهث قبل أن ينظر لقدري ويتلفت بعدها في الغرفة بجنون.. يصيح: تركته يرحل؟

- أنا آسف.. أنا آسف..

ينظر أكرم للفتاة، ويهتف: هو لم يحولهم لشمع فحسب.. لقد عذبهم.. تخيل حياتك لأعوام وسط هذا الجنون.. لقد حولهم لمخابيل.. من بقي منهم حيًا قد أصبح مثل الموتى الأحياء.. نحن لا نواجه البعبع فحسب الآن..

ثم اقترب أكرم من قدري محاولًا تجاهُل الألم في ذراعه وهتف وهو

يمسكه من كتفيه: أفِقْ يا رجل بالله عليك.. احتماليه أن يكون هناك آخرون مثل تلك الفتاة تعني أن الخطر سيحدق بنا من كل صوب.. لا يوجد وقت للخوف.. سنقاتل.. أفِق..

أومأ قدري برأسه وقال: مثل الأيام الخوالي.

- نعم.. والآن لنذهب ونعثر على هذا الشيطان..

***

الفصل السابع عشر

عام ١٩٨٨

شهقت نسرين وهي في التابوت، تحاوِل جاهدة تحرير يديها.. سيحالفها الحظ.. سوف تنجو.. لن تستسلم.. تدعو الله أن يساعدها، تغمض عينيها وتفتحهما.. تتذكر وفاة والدتها، ابتسامة زوجة والدها اللزجة، وانصياع والدها لزوجته الجديدة..

تتذكر حفل عيد ميلادها الذي أقامته لنفسها وهي وحيدة في منزلها، وتظاهُرها بأنها تحيا مع عائلة وهميه أمام الجيران..

هي لم تمر بكل هذا لتُدفَن حية على يد هذا الشيطان..

تأخذ نسرين نفسًا عميقًا، وتفتح فمها.. وتعض الكمامة المحيطة بفمها، تبللها وتمصها للداخل وتعضها كالفئران حتى تمزقها، في الآن ذاته يديها تعبثان بجنون في القيود، يداها المنعقدتان خلف ظهرها.. ينتصب جسدها في قوة وهي تحاول سحب يدها، القيود المتينة تمزق جلدها.. دماؤها تسيل.. لا يهم.. لن تتوقف.. ستعالج يدها وذراعها كله فيما بعد.. وفي لحظة لا تُصدَّق كفيلة بعرضها كفقرة الساحر على المسرح، جذبت نسرين يدها من القيود بعدما تمزق جلدها وتهشمت عظام كفها.. عضت الفتاة على شفتيها حتى أدمتهما.. فقدت الوعي لوهلة.. حلمت بشيء ما لم تتذكره.. ربما تكون قد حلمت بوالدتها.. لا تتذكر.. لكنه كان حلمًا جميلًا.. فتحت عينيها وشهقت..

ألم بشع يمتد ليصل لكتفها، أين أنا؟.. آه أنا في التابوت.. في حديقة القصر.. تسمع أكرم وقدري يصرخان باسمها، لقد نجوا.. تشعر بالسعادة تغمر

قلبها.. لقد نجوا.. حمدًا لله.. تصرخ محاولة الاستغاثة بهما.. لكنها تحت الأرض.. ولا يسمع أحد صوتها..

تحاول فك قيد يدها الأخرى لكنها تفشل، العقدة مُحكَمة للغاية.. تحاول مرة أخرى.. لكن القيد اللعين مُحكَم ويقول: لو اعتقدتِ أني سوف أنحل لأنك حاولتِ مرة أخرى أيتها الحمقاء فأنتِ مُخطئة..

- تبًا لك!

تقولها للقيد وتفكه في المرة الثالثة، الآن الجزء العسير والمخادع.. كيف تصل لقدميها لتحلهما بينما التابوت الضيق يجبرها على الاستلقاء على ظهرها، هي لا تمتلك أي مجال للحركة..

تضرب نسرين خشب التابوت، تضربه بلا هوادة ولا توقف، وتدخل أصابعها بين الفتحات، الخشب يجرح أصابها لكنها تواصل معركتها دون توقف..

تفقد وعيها - من الإرهاق تلك المرة - وعندما استيقظت تلك المرة أدركت أن أكثر من يوم قد مرَّ وهي حبيسه التابوت، ربما يومان.. قواها ترحل بعيدًا، الظمأ يقتلها.. تشعر بالتنميل في جسدها كله، ربما الموت هو الحل الوحيد للفرار.. كلا.. تهز رأسها وتقول محدِّثة التابوت: لن تحتفظ بي.. حتى لو كنت تحبني وتريد احتضاني للأبد، لن تحتفظ بي.

كانت تتحدث مع التابوت كأنه عادل.. هنا انكسر خشب التابوت.. لقد انهار تحت ضربتها، متى كانت تضربه بعد استعادتها للوعي، هي لا تتذكر كأنما جسدها يواصل العمل تلقائيًا بعدما تقاعد عقلها عن العمل..

- سيحالفني الحظ.. سيحالفني.

تغني نسرين بضعفٍ وصوت باكٍ وهي تكسر الخشب، يتساقط التراب فوق وجهها، ويتخلل أنفاسها إلى جهازها التنفسي.. تسعل الفتاة..

- سيحاللفني الحظ..

تغني هي بصوت عالٍ، تجبر نفسها على الاعتدال كي لا يتمكن منها التراب، كي لا تتمكن منها الأرضية الطينية..

تصل لقدميها، هي لا ترى شيئًا.. لكنها تشعر بالقيود اللعينة.. تنطلق يداها في جنون محاولة حل القيود..

التراب يغطيها بالكامل، تسقط للخلف.. تصرخ وتجبر نفسها على الاعتدال مرة أخرى.. تترك قدميها مربوطتين..

تدرك أن أمامها ثواني معدودة لو لم تخرج فيها ستبتلعها الأرض الطينية للأبد..

تحرك ذراعيها للأعلى كأنها تسبح، أنا في الأعماق.. لا أستطيع التقاط أنفاسي.. سمك القرش يقترب، سوف أصل للسطح.. سوف أصل للشاطئ بإذن الله..

تواصل الفتاة السباحة وسط التراب للأعلى..

تخرج يدها من الأرض الطينية.. تخرج يدها من تحت الأرض في الحديقة أمام القصر وأسفل ضوء القمر..

يواصل جسدها الحركة، تهتز الأرض الطينية، وتخرج نسرين وهي تشهق..

تبصق التراب من فمها وتزحف للخارج..

لو رآها قدري الآن لاختار لها أن تكون أحد «الزومبيز» في فيلم الموتى الأحياء..

تقف نسرين.. تسقط.. تقف.. تنظر للقصر.. للحديقة.. للأرض..

في لحظات كتلك يتم اتخاذ القرار دون تفكير، وبعد كل الجنون الذي مرت هي به أخذت نسرين قرارها.. هي لا تريد العودة لأبيها وزوجته.. هي لا تريد الحياة هنا..

بإمكانها توقع ما حدثَ، من وسط أنفاسها المتلاحقة وجسدها المتهالك بإمكانها توقُّع ما حدث.. كالعادة لم يصدق أحد أكرم وقدري.. ولم يبحث عنها أحد بما فيه الكفاية سوى الصبيين..

إذًا ليعتقدوا ما يعتقدونه بشأنها.. هي لن تعود..

تردم نسرين الحفرة.. تقفز من فوق السور.. ينظر إليها كلبٌ ضال، يفكر في مطاردتها لكنه يرثي لحالها، تبدو كزميلة ضالة هي الأخرى.. لا تعلم كيف لكنها ظلت تسير حتى محطة القطار، حمدًا لله أن أحدًا لم يتعرف عليها، يرونها كمجذوبة أو متسولة.. ظلت تغني «ليحالفني الحظ» حتى وصلت للمحطة.. تسولت كثيرًا حتى استطاعت ابتياع تذكرة القطار القشاش رخيص الثمن..

وبكت بينما القطار يرحل..

تقف أمام كابينة هاتف بعدما تصل، تتصل بخالتها.. تجعلها تقسم ألا تخبر أحدًا بتلك المكالمة..

لطالما تمنت الحياة مع خالتها بعيدًا عن كل هذا..

كانت في حالة هذيان تامة..

وقضت أشهر في حضن خالتها دون كلام.. ورغم بكاء وقلق الأخيرة عليها إلا أنها رأت الحب في عينيها..

وهذا جعلها مطئمنة..

حمدت نسرين الله على نجاتها، ولم تمر ليلة وهي لا تفكر بالاتصال بأكرم أو قدري.. وعندما واتتها الشجاعة أخيرًا ظل هاتف بيت قدري يرن دون توقف.. لم تعلم أنه رحل هو الآخر مع أهله..

بيت أكرم أيضًا، لم يجبها أحد.. لقد ترك الصغير المنزل بعد طلاق والديه وبيعهما للشقة..

لم يكن هناك وسيلة اتصال أخرى، وقد أصابها هذا بالجنون.. فكرت في العودة للمدينة لإخبارهما أنها على ما يرام.. لكن عودتها لتلك البلدة يعني حياتها مع والدها..

كلا.. لن تعود..

أكملت نسرين دراستها ومرت الأعوام وهي تحيا حياتها الجديدة مع خالتها..

وبعد التخرج عملت نسرين ككاتبة مسرح، كانت تلك وظيفة بائسة للغاية في مصر ولا تَعِد بالكثير، لكن شغف نسرين جعلها تنجح، وحصلت مسرحياتها على العديد من الجوائز، وحققت قدرًا ضئيلًا من الشهر في

أوساطها المحيطة، وشعرت نسرين بالسعادة..

وعندما اكتشفت مواقع التواصل الاجتماعية بحثت جاهدة عن أكرم وقدري.. وفي إحدى المرات بعد تخرجها ذهبت للبلدة، لقد علمت بنبأ وفاة والدها، وأن أرملته تزوجت قريبها من بعده.. يا لسخرية القدر.. بحثت في المدينة عن أي دليل يقودها لأصدقاء الطفولة دون جدوى..

ومرت الأعوام.. إلى أن أتى اليوم الذي قرأت فيه عن خبر اختفاء عائلة مصوّر يدعى أكرم، ظهر لها الكلام وقد نشره أحدهم على موقع «الفيسبوك» طالبًا الدعاء للعائلة، ومتحدثًا عن انتشار حالات الاختطاف وكيف أنه لا يوجد أحد بمأمن، وربط اختفاء عائلة أكرم بعدد حالات اختطاف أخرى متهمًا - بأسلوب ملتوٍ- تنظيمًا عصابيًا خطيرًا، ومطالبًا الناس في الآن ذاته ألا يقلقوا..

لكن نسرين كانت قلقة، وسعيدة، حزينة.. مشاعر شتى مختلطة انتابتها، بإمكانها التواصل مع أكرم أخيرًا.. لكن عائلته؟.. ما الذي حدث؟.. هل عاد البعبع؟..

تبحث نسرين بضراوة، تبحث عن ملف أكرم لتتواصل معه، تحاول الوصول لعنوانه.. تتصل بمعارفها ليعاونوها..

في النهاية تتوصل لعنوانه.. تقف أمام بيت شقته، دقات قلبها تتسارع.. تتذكر كل ذكرياتها معهما وهي مراهقة.. ترن جرس الباب..

لا يرد أحد، لا يهم سوف تنتظره.. لقد انتظرت تلك اللحظة منذ أعوام، سوف تنتظر..

جلست على السلالم.. ومرَّ الوقت.. ولم يأتِ أحد.. ثم ظهر لها وجه مألوف وحزين.. والدة أكرم.. تخرج من المصعد.. وقفت نسرين ببطءٍ وقد تعرفتها، نظرت إليها المرأة في عدم فهم واتجهت لباب الشقة، هناك مفتاح في يدها..

اقتربت منها نسرين وقالت بصوت مبحوح: معذرة..

نظرت إليها المرأة التي أتت كي تطمئن على ابنها في نكبته..

عرَّفت نسرين عن نفسها، ظلت العجوز تنظر إليها كثيرًا في صمت قبل أن تبكي وتحتضنها دون سبب، ربما الضغط الذي تمر به، ودلفتا سويًا لشقة أكرم، أجفلت نسرين عند رؤية تمثال ماجي ومازن بالداخل.. ونادت أمه عليه دون مجيب.. لمحت نسرين رسالة على منضده الطعام:

«ماجي.. لو عدتِ إلى المنزل.. لو عثروا عليكِ.. اعلمي أني قد عدت للبلدة القديمة كي أبحث عن هناك..»

نظرت نسرين إلى الورقة في يدها، إلى تلك الرسالة اليائسة التي تركها أكرم في أمل زائف.. كان دومًا يحب كتابة الرسائل حتى في زمن الهواتف المحمولة، اختلج قلبها.. ونظرت إلى العجوز واحتضنتها مرة أخرى..

وقررت أن الوقت قد حان لزيارة مسقط رأسها..

***

الفصل الثامن عشر

عندما انتهت نسرين من عقد صفقة مع سائق الأجرة الذي سيتقاضى مبلغ أحلامه مقابل إيصالها للبلدة البعيدة، كان أكرم وقدري يقرآن رسالة ناردين - المختصة - في سيارتهم..

وانطلقت السيارة بنسرين.. عائدة لبلدتها لمقابلة أشباح الماضي..

***

وصلت نسرين للبلدة بعد ساعات عدة بدت لها كشهور، صفقتها مع السائق الذي لم يكف عن الثرثرة طيلة الطريق شملت انتظارها وعودتها، كانت حريصة في اختيار السائق.. كهل آمن وليس شابًا قويّ البنيان، لا تريد أن يتم اختطافها في الطريق..

يقول السائق مشدوهًا وهو يتلفت حوله: لماذا لا يتحرك الناس هنا؟

انقبض قلب نسرين وهي تنقل ناظريها في المتسمرين بالشوارع من حولها..

وتدريجيًا بدأت تفهم السبب..

لقد رحلت هي.. ومرت الأعوام.. وانقطعت علاقاتها مع البلدة، لم يكن لها أن تعلم عن الهول الذي دار هنا..

هي الآن في بلدة الشمع..

توقف السائق ونظر لفتاة صغيرة منحنية كأنها تكاد أن تسقط، لكنها توقفت في الزمن قبل أن تلامس الأرض ووراءها تمثال لامرأة ترتدي النقاب

تهم بالتقاطها لكنها أيضًا جمدت في مكانها.. تحرك السائق بتلقائية بعدما أوقف السيارة وهو يبسمل ويحوقل وصاح: أنتم بحاجة لمساعدة؟

ثم ترجل من السيارة ونسرين لا تزال عالقة في هتاف: لا توقف السيارة أرجوك.

تجاهلها السائق وهرع نحو الفتاة.. انحنى ونظر إلى وجهها قبل أن يصيح بذعر..

- هذا تمثا...

قبل أن ينهي كلمته تحرك تمثال المرأة المنتقبة وصرخت نسرين، عندما انقض التمثال على السائق وغرزت المرأة أصابعها في عيون الرجل الذي حاول أن يقاوم دون فائدة، ودماؤه تسيل كالدموع على وجهه..

لم تكن صفقته رابحة بعد كل شيء مع نسرين التي صرخت مرة أخرى وهي تفتح باب السيارة، تنزلق يدها من على الباب الذي أبى أن ينفتح، تعدو المرأة المنتقبة صوب نسرين.. تدخل السيارة.. تحاول الفتاة فتح الباب دون جدوى.. تضرب الباب بكفها وينكسر الزجاج، تركل المرأة.. تتراجع الأخيرة للخلف لثوانٍ قبل أن تنقض على نسرين التي أخرجت ذراعها من النافذة المكسورة وفتحت الباب مسرعة قبل أن تقفز بجسدها للخارج.. تهاجمها المرأة وتقبض على ساقها وتجرها للخلف، تركلها نسرين مرة أخرى قبل أن تعدو بكل ما أوتيت من قوة..

تنظر وراءها، وتصرخ هلعًا.. المرأة تعدو وراءها، وقد تحرك تمثال آخر لينضم إليها في المطاردة..

كيف؟.. هل غسل البعبع عقولهم؟..

لا يمتلك عقل نسرين الوقت الكافي للإجابة.. الهرب هو المهم الآن.. تنعطف نسرين يمينًا وتدخل أحد المطاعم.. تشهق وهي تنظر لرواد المطاعم الجالسين متخشبين، بعضهم ينظر لأطباق الطعام المتعفن والممتلئ بالحشرات المتراصة أمامهم، وبعضهم ينظر للمدخل..

تنظر نسرين وراءها.. مطاردوها يقتربون..

تدخل المنتقبة ومعها رجل شديد الضخامة وفارع القامة.. ويدور الاثنان بعيونهما في أرجاء المطعم الضخم..

في الركن الأخير تجلس نسرين على مائدة طعام وسط عائلة مكوَّنة من رجل وامرأة يجلسان - فيما يبدو - مع ابنتهما وزوجها وليس عكس.. لقد أجاد حقًّا صياغة كل تفاصيلهم.. حتى لتشعر كأنهم في لوحة.. تبتلع نسرين ريقها وهي جالسة متسمرة تتظاهر بأنها تمثال.. وعيناها تتابعان مطارديها اللذين دخلا المطعم..

هنا ترفع المنتقبة رداءها الأسود وتتخلص منه وتتسع حدقتا عين نسرين عندما ترى أن المنتقبة ليست سوى رجل عارٍ يرتدي قناع شمعٍ على وجهه..

تنساب دمعة على وجهها، يقترب الاثنان من منضدتها..

يدوران برؤوسهما بين التماثيل..

يقترب الضخم وينحني ليقترب بوجهه محاولًا تبيُّن وجه الفتاة الجالسة على المنضدة أمامه.. ومن المنضدة المجاورة تهب نسرين واقفة وتغرز الشوكة التي قبضت عليها بيدها في عنقه، يعتدل الضخم ويصرخ ممسكًا

بالشوكة، يضحك الآخر في مجونٍ ويعدو نحو نسرين التي تراجعت للخلف هاربة منه، يقف أمامها ضاحكًا.. يقترب منها.. يمينًا ويسارًا كأنه يهم بالانقضاض فتجفل هي وسط ضحكاته، يُخرِج الضخم الشوكة من عنقه وتنبثق دماؤه، يصرخ وهو ينقض على نسرين غاضبًا لكنها تتفاداه بسرعة ليسقط فوق المنضدة والتماثيل ويهشمهم، وعندما فعل هذا برزت عظام ودماء التماثيل المتجمدة أسفل جلدهم الشمعي.. صرخت نسرين بغضب جنوني وعدَتْ، وانطلق الفتى العاري وراءها.. انعطفت يمينًا واختبأت أسفل إحدى المناضد ثم زحفت لتصبح تحت منضدة أخرى.. وصل الفتى وبحث بعينيه عنها مرة أخرى..

ثم أمسك المناضد وبدأ يقلبها واحدة تلو الأخرى ونسرين تزحف مبتعدة عن قدميه المقتربتين.. ثم تدحرجت يمينًا وقفز هو نحوها عندما ظهرت له، سقط فوقها وجحظت عيناه.. نظرت له هي بتحدٍّ.. بصق دمًا وهمدت حركته واستلت هي السكين من صدره.. هبت واقفة وخرجت من المطعم وهي تهتف: يا إلهي!

وتلفتت حولها.. ترى أيٌّ من تلك التماثيل حي؟

***

- أتسمع تلك الصرخة؟

- ربما تكون فخًا.

- علينا تتبُعها يا رجل

ينطلق أكرم وقدري متتبعين مصدر الصوت، وهما يبحثان بأعينهما عن

البعبع ويترقبان تحرك أي من التماثيل للانقضاض عليهما..

يصلان للشارع، هنا يتحرك تمثال داخل إحدى السيارات، لرجل مشوه بلا أنف.. يدير الرجل مقود السيارة وينطلق بها صوبهما.. يتسمر الاثنان مكانهما وهما يريان السيارة التي تهم بدهسهما..

عندما ينطلق الحجر الذي يهشم زجاج النافذة ويرتطم بوجه السائق، يميل رأسه بقوة ومعه يداه.. تنعطف السيارة بقوة قبل أن تنقلب على نفسها عدة مرات، وتهشم زجاج إحدى المكتبات وتستقر بداخلها فوق تمثال أمين المكتبة..

غمغم قدري وهو ينظر منبهرًا لما حدث: لطالما كرهت تلك المكتبة..

ببطء.. يتحرك الاثنان وينظران للشخص الذي رمى الحجر.. لمنقذهما.. لنسرين..!

يتوقف الاثنان وينظران للفتاة سوداء الشعر ذات العوينات، تقف الفتاة وتنظر إليهما، هي ليست فتاة.. هي امرأة.. تبكرهما بعدة أعوام..

يتسمر الاثنان مكانهما وهما ينظران إليها.. وتنظر إليهما هي دامعة العينين.. قبل أن تقول: لقد حاولت.. أقسم لكما إني حاولت، لم أعرف أبدًا كيف أصل إليكما..

هما لا يزالان ينظران إليها بغباء وعدم تصديق، بذهول تام..

نسرين.. تقف أمامهما..

نسرين.. لا تزال حية..

كيف؟.. لماذا لم تتصل بهما طيلة تلك الأعوام؟.. هل تلك خدعة أخرى من البعبع؟.. كلا.. يفكر أكرم وهو ينظر إليها، تلك هي نسرين.. قلبه يقول له هذا.. كما أنها أنقذت حياتهما للتو..

يظل الأصدقاء الثلاثة واقفين، تدمع عينا قدري، كان هو أول من ابتسم، بكى قليلًا، ثم قال لها: تبًّا لكِ..!

ضحكت هي وبكت في الآن ذاته قبل أن تهتف: تبًّا لك أنت أيضًا!

وجد أكرم نفسه يحتضنها في قوة، وانضم إليهما قدري..

ووقف الأصدقاء الثلاثة وهم كبار الآن في مدينتهم الصغيرة، لقد عادوا وتجمعوا سويًّا حيثما بدأ كل شيء..

تبادل الثلاثة النظرات..

هم الآن في العاشرة من العمر مرة أخرى، وهي في الرابعة عشر.. عليهم أن يستعيدوا طاقتهم وقوتهم الخام القديمة، عليها استعادة روح طفولتهم دون ندبات الحياة وآثارها.. تلك هي وسيلتهم الوحيدة لكي ينتصروا، الكبار عقلانيون، يقلقون وينهكون.. عليهم أن يصبحوا الفرسان الثلاثة مرة أخرى، وقد فهمَ كلٌّ منهم هذا وهم يتبادلون النظرات..

- أنا سوف أكون ستالون.

- وأنا فاندم.

- أنا مولان.

- لنبدأ إذًا.

***

يسير أدهم ببطء مرتديًا العباءة السوداء والقناع، عيناه تتوهجان ومخالبه تتأهب.. برعي يسير أمامه.. لقد عاد الصغار إلى بلده ورأى برعي أخيرًا بعد عقود.. هو شبح الأوبرا مرة أخرى.. لقد حان وقت المعركة الأخيرة.. انتظرهم كثيرًا.. وها هم ذا الآن.. هو حقق قدرَهُ.. وحوَّل كل شيء من حوله لكابوسه الخاص، مثل تلك اللوحة التي رآها في الباخرة لمدينة أهلها كلها من شمع.. هو حقَّق قدره.. وعليه اصطياد الصغار الملاعين.. هذا هو الشيء الوحيد المتبقي فعله.. الحقيقة أنه لم يكن يراهم في صورتهم البالغة، كان يراهم - مثلما يتخيل برعي - وهم أطفال.. عندما نجوا منه..

يتوقف أدهم.. ويتذكر لحظة ضربه للكلب إياه.. يسمع بعدها صوت أغانٍ صاخبة.. تتأهب أذناه.. يسير ببطءٍ.. الملاعين يستدرجونه لفخ.. يصل وينظر لمصدر الضوضاء..

جهاز كاسيت عتيق تنطلق منه أغنية ما.. أغنية «صائدو الأشباح» لكنه لم يكن ليعلمها.. يقطب جبينه وهو ينظر لجهاز الكاسيت الموضوع بعناية في منتصف منطقة الألعاب بالنادي.. جوار الأرجوحة وبيت الأطفال الخشبي..

هناك تمثال لمشرف المنطقة وهو يتحدث مع أم أحد الأطفال، تمثال الأم يبدو حقيقيًا للغاية، يكاد يصدق أنه حقيقي.. ينظر لأعماله في فخر للحظة.. هو فنان حقيقي.. ينظر بعدها لجهاز الكاسيت.. ثم يتلفت حوله..

هم ليسوا هنا، الأوغاد استدرجوه لمكان بعيد فقط كي يهربوا في مكان معاكس، صاح بصوت هادر: أيعجبكم ما فعلته ببلدتكم؟.. تحفتي الفنية

الخالدة..

لم يرد أحد.. لأنهم جبناء غير قادرين على المواجهة، تبًا، الأغنية مزعجة حقًّا.. يسير نحو جهاز الكاسيت وينحني كي يطفئه، وعندما يفعل هذا يلمح تمثال الأم ملقى وراء الحشائش.. يهب واقفًا عندما تتحرك نسرين الواقفة أمام تمثال المشرف وتضربه على وجهه بحقيبة يدها الممتلئة بالأحجار.. يرتج رأسه ويسقط للخلف على ظهره.. ينظر للسماء، وتظهر وجوههم وهم واقفون من حوله..

أكرم.. قدري.. ونسرين..

وتقول الأخيرة: ما الأمر أيها العجوز؟.. ألا تحب أغاني الثمانينيات؟

وتركله في معدته بعدما تنتهي، تأوِّه في ألم..

انحنى أكرم نحوه والبلطة في يده.. نظر العجوز لأكرم..

- أين عائلتي؟

- نظر إليه أدهم طويلًا، هو لا يعلم عمَّا يتحدث.. أحدهم أخذ عائلة الفتى وقد افترض الأخير أنه هو.. ليمزق قلبه عليهم إذًا.. يقول أدهم مبتسمًا: لقد ذبحتُهم ورميت جثثهم للكلاب، لم يكونوا جديرين بالانضمام لمتحفي.

دفعه أكرم للخلف وهو يصرخ بغضب قبل أن يرفع البلطة عاليًا ويهوي بها على عنق المسخ.. مرة.. والثانية.. والثالثة..

يتذكر أكرم التماثيل..

يصرخ، يضرب بالبلطة..

ماجي.. مازن.. كل الضحايا

تناثرت دماء البعبع على وجه أكرم

رفع أكرم البلطة عاليًا، بصق العجوز دمًا.. ارتكزت عيناه على عيني أكرم.. برعي يتألم في الخلفية ثم يسقط أرضًا.. يفتح أدهم فمه لينادي على صديق مخيِّلته..

هوى أكرم للمرة الأخيرة بالبلطة.. انفصلت رأس العجوز عن جسده وتدحرجت بعيدًا..

وقف أكرم وهو يلهث، يداه ترتعشان.. ألم ممض في كتفه.. وخيل إليه أنه يرى انعكاسه وهو طفل في عيني نسرين وقدري.. تقدَّم قدري للأمام ونظر لجسد غريمهم.. ثم نظر لأكرم.. قال الأخير: لم يكن ليبقيهما أحياء طيلة تلك الفترة.

ثم بكى أكرم وكرر: لم يكن ليبقيهما أحياء، تحتضنه نسرين.. وكذا يفعل قدري..

تنظر نسرين لجسد البعبع، هو الذي دفنها حية، وجلب البؤس لحياتها.. كل ليالي الأرق تلك وهي تفكر وترتجف.. كثرة التفكير في الشيء جعلتها تكاد تنهار، وبشكل ما انتهى الأمر في ثوانٍ معدودة.. لحظة مواجهة مع أسوأ مخاوفها، تشعر بعدها بقوة لا متناهية..

تنظر نسرين لأكرم وقدري..

ثلاثتهم واقفون في منطقة الألعاب قُرب الإستاد.. حيث تقابلوا للمرة الأولى منذ اثنين وثلاثين عامًا.

- هناك شيء واحد علينا، شيء لطالما أردت فعله منذ طفولتي في الحقيقة.

يسكب الثلاثة ما يجدونه من جازولين ووقود في كل أنحاء المدينة ويفتحون كل الأنابيب.. ثم يقفون على مشارفها تحت لافتة «ادخلوها آمنين» ويرفع أكرم القداحة، ينظر لقدري متذكرًا لعبة حرق الأشياء بالثقاب التي لطالما لعبوها فيما سبق ويقول أكرم: إنه دوري.

***

يقف ثلاثتهم ينظرون للمدينة المحترقة وقد انعكست نيرانها على عيونهم.. يُخيَّل إليهم أنهم يسمعون صرخات تماثيل الشمع.. وجوه التماثيل تذيب وتسيح فوق الابتسامات على وجوههم المتخشبة، تتآكل جدارن المدرسة وتحترق الفصول.. تلتهم النيرن دار العرض.. تنفجر الأنابيب محدثة دويًا مخيفًا.. قليلون هم من يرمقون النيران أو البحر ولا يشردوا، ناهيك لو أن تلك النيران تحرق ذكرياتك، وقد وقف الثلاثة مسحورين يرمقون النيران وهي تلتهم ماضيهم..

هنا هتفت نسرين: انظروا..

وأشارت للكلب الهزيل الذي خرج لهم في حديقة القصر.. وأردفت نسرين: لن نتركه هنا.. سوف نأخذه بعيدًا ونبتاع له الطعام ونضعه في مأوى للكلاب الضالة..

- أكرم يخاف الكلاب يا نسرين.. وهل يوجد مأوى للكلاب الضالة في مصر بالله عليك، نحن أنفسنا بحاجة لمأوى.

- أنت الذي تخاف الكلاب كف عن التظاهر..كما أني بحاجة كي أضعه في

مأوى.

قالت الجملة الأخيرة بنوع من الحزم والعاطفة في الآن ذاته وهي تتحكم في دموعها وتفهُّمها، الاثنين، بعد كل ما مرت به اليوم هي بحاجة لفعل شيء ما بسيط مثل إنقاذ الكلب..

وحملت الكلب بحب وهي تحتضنه وتدلله، تبادل قدري نظرة يائسة مع أكرم وقال الأول: أتتخيل كم الأمراض التي التقطتها هي في تلك اللحظة؟..

- دعها..

قال أكرم بشرود وأردف: على الأقل نكون قد أنقذنا كائنًا حيًا ما في تلك الليلة..

***

يفقد أكرم وعيه إثر جراحه وهم في سيارة قدري عائدين.. تظل نسرين تتحدث إليه وهو فاقد الوعي.. مطمئنة إياه أن كل شيء سيكون على ما يرام..

يصلون للقاهرة

يخرج أكرم من المستشفى التي يعمل بها قدري وهو يستند على الأخير، ذراعه مضمدة تمامًا بعد أن تم تجبيسه.. من حسن حظهم أن قدري طبيب ذو شأن، هذا جنبهم الكثير من الأسئلة عن تلك الإصابة..

رحلة العودة كانت صامتة تمامًا، أكرم وقدري ونسرين في السيارة.

- لن نتركك وحدك.

يقولها قدري ونسرين في الآن ذاته لأكرم وهم أسفل بنايته.. لا يرد أكرم.. تعبير هادئ من الحزن والألم على وجهه..

يخرجون من السيارة، ينظر قدري لأكر وهما في المصعد.. يغمغم: أنا حقًّا آسف.

ينفتح باب المصعد، يتوقف أكرم للحظات، هو لا يعلم إن كان مستعدًا لدخول الشقة ورؤية تماثيل زوجته وابنه في تلك اللحظة بعدما أدرك للمرة الأولى أنه قد خسرهما للأبد.. يحاول التماسك..

يسير بهدوء ويخرج من المصعد، يتبعه قدري..

يتصل أكرم بوالدته التي عادت لمنزلها ويطمئنها أنه بخير.. يقول لها وهو ينظر لضيوفه في الصالة: أنا مع الأصدقاء.

كما كان يقول لها وهو طفل، يعرِّفهما دون الإشارة إليهم بأصدقائي كأنها يجب أن تعرف تلقائيًا أنه مع قدري ونسرين.. رغم اعتراض والده على صداقته مع الأخيرة.. ينهي أكرم المكالمة وينضم إليهما..

تنظر نسرين للمقاعد والأثاث ثم لسبب ما تجلس فوق الأرض ببساطة، ويجلسان هما حولها، وتحكي لهما.. تحكي لهما كل شيء..

وبعدما انتهت هي حكى لها قدري كل ما حدث بينما أكرم يجلس صامتًا، بعدما انتهى قدري ظلَّ الثلاثة معًا طيلة اليوم، وتحدثوا في أشياء عدة، في البدء.. كلٌّ في منتصف اليوم شعروا وكأن شيئًا قد تغيَّر بينهم.. كأن لقاءهم الحار والعنيف في البداية تخلَّله ارتباك وإحراج وحقيقة تقبُّل أنهم غرباء الآن، وقد فرَّقتهم الحياة.. لكن هذا الشعور سرعان ما تلاشى، ووجدوا

أنفسهم يتعاملون مع بعضهم البعض بنفس العفوية والسذاجة التي كانوا عليها منذ ثلاثين عامًا..

كان الوقت ليلًا عندما أشعلت نسرين لفافة تبغ، رفع قدري حاجبيه وقال مازحًا: يا إلهي إنها تدخن!

- أتريد واحدة؟ لن أقول لوالدتك.

- إليكِ عني أيتها المتحذلقة.

نفثت دخان سيجارتها بينما قدري يريها صورة زوجته وأولاده، لقد انتظر حتى ذهب أكرم لدورة المياه كي يفعل هذا، لم يكن ليتباهى بعائلته أمام صديقه الذي فقدَ أهله..

ابتسمت نسرين وهي تنظر إلى صوره ثم همست لقدري: أترى، إنه تصرف ذكي إهداؤه تماثيل لعائلته؟

- لا أعلم لقد فعلت ما شعرت أنه يجب عليّ فعله فحسب و...

عاد أكرم وقطع قدري كلامه.. جلس الثلاثة قبل أن تقول نسرين: هناك شيء لا أفهمه...

- البعبع كان عجوزًا متهالكًا.. كيف استطاع المجيء وتخديرك وأخذهما والسفر بهما؟

ظلَّ أكرم صامتًا.. غمغم قدري: كيف كان يختطفنا من بيوتنا ونحن أطفال؟ للبعبع قدرات خارقة.. كيف حوَّل مدينة كاملة لبلد من شمع!

- كلا.. كل ما يفعله كان له تفسير.. نحن كنا أطفالًا ولذا اعتقدنا أنه خارق..

كان يتسلل للمنزل، يضعنا في حقائب أو أكياس قمامة، يتظاهر بأنه عامل ما ويأخذنا.. حتى ما فعله بالبلدة.. الأمر الذي يكاد يفقدني صوابي كلما فكرت فيه حتى الآن.. بلد كاملة تتحول لشمع.. يا إلهي.. ولكن.. لكن كيف يمكن لعجوز أخذ عائلتك وسافر بها؟

يتذكر أكرم الدهشة في عيني العجوز عندما رآه في القصر.. كأنه لم يكن يتوقع مجيئه..

ينظر أكرم لنسرين، مفكرًا فيما تقوله، وشاعرًا بالامتنان لوجودها، والحقيقة أن ثلاثتهم جالسون يتحدثون ويحققون مثلما كانوا يفعلون فيما سبق، يريد الصراخ في غضب جنوني في الآن ذاته والبكاء حتى الموت، وهو يستوعب تدريجيًا أنه قد فقدَ عائلته..

يقول أكرم: أنتِ تريدين قول أنه لم يأخذهما؟

تهز نسرين كتفيها، يقول قدري مبتسمًا: أنا لا أصدق حتى الآن أنكِ جالسة معنا تهزين كتفيك بطريقتك القديمة..

تبتسم نسرين، ثم تقول لأكرم: ربما من أخذهما.. ربما هو شخص آخر..

- أنا لا أمتلك أعداء، ولقد بحثت في كل صوب وكذلك فعلت الشرطة، ها.. لقد صدقوني تلك المرة وبحثوا حقًّا..

ثم دمعت عيناه وهمس: أريد فقط معرفة ما حل بهما..

وضعت نسرين يدها على كتفه واقترب منه قدري..

وبعد رفض أكرم عرض قدري اللحوح بالمبيت معه، رحل صديقاه.. واتفقوا

على اللقاء في صباح اليوم التالي.. ذهب قدري ليوصل نسرين إلى منزلها.. قبل أن يقول لأكرم وهو على الباب: أتعلم شيئًا؟.. سحقًا لك.. سوف أبيت معك الليلة رغمًا عنك.. سوف أقلها لمنزلها وأعود..

ينظر أكرم إليه في استسلام.. ويودع نسرين..

يجلس أكرم وحيدًا في الشقة، ينظر إلى تمثال ابنه.. قال بصوت متهدج: سامحني..

ورفع عينيه لوجه تمثال زوجته وكرّر: سامحوني..

ثم تصلب جسد أكرم فجأة، واتسعت عيناه..

من الغريب أن يكون هناك شيء أمامك طيلة الوقت.. تفصيلة بسيطة.. لكنك لا تلاحظها، إلا متأخرًا..

مثل ابتسامة فتاة أنت معجب بها.. أو شيء قاله لك مديرك في العمل عن ترقية ما..

أو الشامة أسفل أذن طفلك الصغير..

لقد غزت الحقيقة عقلَ أكرم دون مقدمات..

الوميض، يضيء دهاليز عقله بالكامل.. جرس إنذار الحريق يدق دون توقف فتخرج أفكاره في هلع وتسير بتخبط بين الدهاليز وهي تتساءل عما يحدث.. يحاول عقله الصياح بشيء ما، لكنه مكمَّم الفم.. أفكاره تعدو في كل صوب وإنذار الحريق يتواصل..

لقد فهم أكرم.. لكنه بحاجة للتأكد.. يقترب وبيدٍ مرتجفة يمد يده صوب

وجه تمثال مازن..

..وعندما وقعت القشرة من على وجهه، قشرة الشمع التي تغطي جبين التمثال.. ورأى أكرم الدماء المتحجرة أسفلها..

هنا أزال عقله الكمامة من على فمه وصاح بصوت هادر توقفت له كل الأفكار عن عدوها وهلعها.. يصيح عقله: تمثالا الشمع هما زوجتك وابنك.. أنت تبحث عنهما طيلة الوقت وهما في بيتك..!

تولول الأفكار وتبكي بين دهاليز عقل أكرم، ويسقط بعضهم فاقد الوعي..

حينئذ أدرك أكرم أن زوجته وابنه كانا معه في بيته طيلة الوقت، بعد أن تحولا لتماثيل شمع..

نقل أكرم نظره إلى زوجته، ثم إلى ابنه..

إلى وجوههما..

أعينهما..

اقترب منهما في ذهول.. فاغرًا فمه..

تحسسهما، لمسهما..

- يا إلهي!

وضع يديه على رأسه وصرخ: يا إلهي!

وانساب كل شيء لعقله دفعة واحدة.. عيونهما تنظر إليه، تتابعه في كل صوب وهو يتحرك كالمجنون، يصرخ باكيًا: كفا عن النظر إليّ أرجوكما..

يسقط أرضًا.. التماثيل تنظر إليه.. وتروي له ألف حكاية وحكاية..

***

قدري دومًا مختلف عن أبناء جيله..

***

رد فعله دومًا مختلف للمواقف المتطرفة، دومًا مختلف عن زملائه.

***

للمعرفة ثمن باهظ.

***

الابتسامة البلهاء تعتلي وجه قدري بعد طرد والده للرجل، يستوعب طاقة العنف اللفظية.

***

يسير قدري كالمسحور وهو في السيرك صوب رسمة الباخرة.

***

يسبح أدهم كالمنوم مغناطيسيًا صوب الباخرة.

***

ينظر إليه قدري وهما في السيارة ويقول: أعني أنك كنت طفلًا، ربما الأهوال التي رأيتها قد أثرت فيك.. ويضيف: صدمات الطفولة تشكلنا، أليس كذلك؟..

***

تتسع عينا قدري والمقصلة تهوي على عنق المرأة العاري.

***

ما نراه في طفولتنا يترك بصمة بروحنا للأبد.

***

ليحذر من يحارب الوحوش من أن يتحول لوحش.

***

تراجع أكرم الصغير داخل متحف الشمع إلى الخلف في خوفٍ، فكرة أن يعتقد أن التمثال بشر، ثم يكتشف العكس قد هزت كيانه.

***

يرتعش أكرم وهو جالس على الأرض.. لم ينجُ قدري مما حدث لهما وهما أطفال، لقد ترك المسخ جزءًا ما منه في الفتى الصغير، هو لم ينقذ صديقه من التابوت تلك الليلة، لقد مات الجزء البشري بداخله، واستيقظ جانبه المظلم، يتذكر للمرة الأولى، النظرة الخاوية على وجه صديقه وهو يخرجه من التابوت.. لطالما اعتقد أنها كانت نظرة مَن هو في حالة صدمة، لكنه كان مخطئًا.. لقد أنقذ شخصًا آخر في تلك الليلة.. لم يكن هذا الذي خرج هو صديق طفولته..

صديقه؟.. صديقه الذي خدره.. لقد كان يتعشى مع قدري قبيل ليلة اختفائهما، صديقه الذي انسل لمنزله واخطتف زوجته وابنه..

ترى أي رعب شعرت به ماجي وهي ترى الوجه الآخر لقدري؟.. وما الذي شعر به ابنه؟.. يغمض أكرم عينيه في ألم..

قدري يحوّل ماجي ومازن لتماثيل شمع، هوايته المحببة.. ويهدي التماثيل لأكرم.. محوّلا بيت الأخير لمتحف الشمع الخاص به..

أكرم يبحث عن عائلته المختفية وهم في منزله طيلة الوقت...

يتذكر قدري في منزلهم، يأكل من على مائدتهم، وهو يقول لماجي إنهم مثل الإخوة..

يضع أكرم يده على رأسه ويصرخ..

لماذا؟.. هل جن قدري بعد تلك الليلة في قصر سليمان باشا؟.. هل أصيب بالخبَل وأصبح قاتلًا ساديًا مثل البعبع؟.. أم أن هناك حقًا طاقة ظلام استحوذت عليه؟..

أي متعة سادية كان يشعر بها وهو يدمر حياة صديقه ويتلاعب به هكذا؟..

كان يعتقد أن قدري قد تحوّل لإنسان عملي ومادي، يرعى عائلته وأطفاله ويفكر بالمستقبل، لم يعلم أنه تحوّل لمسخ..

أكان قدري يشعر بالغيرة من أكرم لأنه لم يتغير، لأنه فعل ما يريده في الحياة ولم يرضخ لإرادة أهله مثلما فعل قدري؟

ما هو السبب؟..

- لمااااذا؟

صاح أكرم بغضب..

يسمع صرخات زوجته وابنه، ينظر إلى تمثاليهما.. تمزق الصرخات رأسه.. يضع يديه على رأسه بقوة ويصرخ دون هوادة..

يرفع أكرم رأسه ويغمغم: نسرين..!

هي مع قدري الآن، لوحدها..

لقد فشل في إنقاذ عائلته، لكنه لن يفشل في إنقاذها..

يهب واقفًا..

أين هما؟ هو لا يعرف عنوانها..

يلتقط هاتفه، الاتصال بينه وبين هاتف قدري لا يزال يعمل، خطتهما في معرفة مكان بعضهما البعض لو افترقا في قصر سليمان..

يرى النقطة الحمراء المضيئة على هاتفه، هذا هو قدري.. صديق عمره..

الغضب يسري في جسد أكرم..

لقد كان رجل الأنفاق محقًّا، للحقيقة ثمن باهظ..

يهرع أكرم لخارج الشقة..

ليته كان يستطيع القيادة، كيف سيلحق بهما..

لا بأس لا بأس.. ٢٠٢٠ تقدّم له حلولًا لم يمتلكها في ١٩٨٨

يطلب أكرم «أوبر» وهو يعدو على السلالم ليخرج من البناية..

***

جزء من مذكرات قدري

لقد قتلتهم جميعًا.. كل تلك الأعوام وأنا أنحت التماثيل.. ثم جاءت المرة الأولى.. وأنا أتحدث مع الممرضة التي أعلم جيدًا أنها تهيم بي لا لوسامتي بل لأموالي ومكانتي الاجتماعية، ربما أنا ورثت جنون العظمة عن والدي حقًا، لكني أعلم أني متفرّدٌ من نوعي.. وكذلك علمت هي، تلك الممرضة.. أعتقد أن اسمها كان ثناء.. وهي مخدرة ومقيّدة.. وأنا أحوّلها لتمثال شمع.. وهي غير مستوعبة - تلك الغبية - ما يحدث لها.. لقد ألهمني البعبع حقًا.. لكل منّا قدوته.. أوليس هذا هو الفن؟.. نحن نحيا نبحث عن السعادة.. وفي أعمالي تلك سعادتي.. أنا لست وحشًا.. أنا أحب عائلتي.. وأحب أكرم وعائلته.. وأفتقد نسرين.. أنا لا أزال كما أنا.. لكنه يستيقظ بداخلي أحيانًا.. لقد استيقظ للمرة الأولى عندما رأيت رسمة الباخرة في السيرك، شعور ممضٍ بالظلام.. بالجنون.. بأني لم أعد المسيطر على أفعالي.. هناك آخر بداخلي.. كل رجل يحمل بداخله اثنين، والآخر بداخلي من حقه أن يخرج ويحيا أيضًا.. أحاول ألا أجعله يمتلكني تمامًا.. لكني أرضيه - وأرضي نفسي - بما أفعله.. حاولت أن أشرح هذا للممرضة الحمقاء، لكنها لم تفهم.. ذبحتها وحملت رأسها وحوّلتها لشمع وحرقت جسدها ثم تخلصت من الرماد، لا أحد يفهمني، أنا فقط مختلف.. ربما لو لم أقابل شبح الأوبرا، ربما لو لم يحدث ما حدث.. لكنت مثلهم.. ولكن ما يحدث في الطفولة يترك ظلالًا طويلة على شجرة حياتكم، أليس كذلك؟.. حاولت شرح دوافعي لماجي.. أعتقد أن مازن قد فهمني قليلًا.. لكن زوجة صديقي المقرب لم تفهمني على الإطلاق.. لكني أحب أكرم ولذا لم أستطع حرمانه منهما طويلًا، أعدتهما إليه في هيئة مختلفة، حسنًا لنكن صرحاء لا أعتقد أنه سيقدّر هذا كثيرًا، لكني لا أهتم.. أنا عبقري.. أنا الذي حاربت الوحش وأصبحت مثله بدوري.. مثلما كنت أشاهد

فيلفا وأختار أن أكون فاندام أو ستالون.. الأمر حقًا بتلك البساطة.. لقد اخترت أن أكون البعبع.

***

الفصل التاسع عشر

يدير قدري مقود السيارة ونسرين جالسة جواره، يختلس نظرة إليها تلمحها هي فتبتسم..

- أتعلمين؟ لطالما أردت سؤالك.. ما الذي قالته لك العرافة تلك الليلة؟.. ونحن في الخيمة.. أعني.. لقد همست لك بشيءٍ ما في أذنك.. فاحمر وجهك بعدها.. لطالما افترضت أنا وأكرم أنها قالت لك شيئًا مشينًا.. لكننا لم نتجرأ على سؤالك.

ضحكت نسرين بصوتٍ عالٍ قبل أن تقول وهي تستند برأسها على زجاج النافذة وتنظر لقدري مبتسمة: أوغاد.. لم يكن شيئًا مشينًا.. قالت لي أنك تهيم بي حبًا.

- تبًا.

ضحك الاثنان بعدها، وتذكَّر قدري العرافة وهي تقرأ لأكرم الطالع.. وكيف أنها أخبرته أنه سوف يفقد أحباءه.. ظلت تصرخ بعدها وتقول: سيأخذهم هو.. هو.. هو..

هل كانت تقصده؟.. هل كانت تشير إليه ولم يفهم أحدهم حينئذٍ.. لا يعلم..

تتنهد نسرين وهي تنظر لقدري، تشعر باسترخاء وأمان لم تشعر به منذ دهور.. لقد حالفها الحظ بعد كل شيء..

- فيمَ تفكر؟

تسأله غير ملاحظة أنه قد انعطف بالسيارة..

- أفكر في سخرية الحياة.. أنتِ نجوتِ منّي منذ اثنين وثلاثين عامًا ثم عدتِ كي أفتك بك اليوم..

نظرت إليه بعدم فهم تحوَّل لاستيعاب واجمٍ إزاء نظرته الصامتة إليها..

ولم تصدق هي نفسها عندما وجدت الكمامة المخدِّرة على أنفها..

***

تماثيل شمع مرة أخرى..

لم تصدق نسرين عينيها وهي مفترشة الأرض في شقة مقفرة بناية مهجورة.. لم يقيدها، لم يبدُ أنه يبالِ كثيرًا كأن صدمتها كافية لشل حركتها..

الدوار لا يزال برأسها إثر المخدر، وهناك تنميل في جسدها.. ربما لهذا لم يقيدها، هو طبيب بعد كل شيء.. لعلَّه استخدم مخدرًا ما له هذا التأثير..

يمر في عقلها شريط معرفتها بقدري.. الفتى الصغير الذي حارب البعبع من أجلها، الذي أنقذها، الذي اعترف لها بحبه.. قدري.. صديقها المقرب.. لقد تغير كل شيء، لقد حوَّلت الحياة صديقها.. ربما البعبع كان محقًا.. والأساطير حول القصر حقيقية.. ربما هناك طاقة شيطانية تستحوذ عليهم لجعلهم يقتلون.. هي تتمنى هذا التفسير الروحاني.. هذا أفضل من كون قدري سفاحًا بملء إرادته.. أفضل من كونه بعبعًا جديدًا..

وها هي ذي الآن، راقدة على الأرض في تلك الشقة ذات الطوب الأحمر والأرض الرملية في بناية مقفرة ومهجورة تمامًا مقابلة للجبل على طريق القطامية.. تنتفض عندما يقول قدري: أتحبين شقتي الجديدة؟.. لقد أجَّرتُها.. لمدة خمس سنوات، ووعدت المالك بترميمها بالكامل.. زوجتي كانت ستعلم

لو كنت ابتعتها، لهذا الإيجار أفضل.. هنا أفعل كل ما يحلو لي.. هنا المقر الجديد لمتحف الشمع..

تقاوم نسرين الدموع في عينيها، لن تبكي مرة أخرى.. لقد عاهدت نفسها على هذا، وقفت أمام مرآتها ذات ليلة وهي في بيت خالتها وقالت: لن أبكي أبدًا مرة أخرى مهما فعلت الحياة بي..

كانت تعتقد أن الحياة قد كشفت لها عن كل خططها الخبيثة، لكنها لم تكن لتتوقع أبدًا تلك المفاجأة الأخيرة..

صديق طفولتك المقرب هو الشيطان..

- لماذا؟ هل هذا لأني رفضتك ونحن أطفال؟

- هاها.. لا تكوني حمقاء.. الأمر ليس عنكِ أنتِ.. أنتِ مجرد جائزة إضافية، سأكمل ما بدأته معك منذ ثلاثين عامًا.

صرخت نسرين بغضب: لم يكن أنت.. لقد كان البعبع..

- لكنه بداخلي الآن.. وعليّ أن أكمل عمله.

يا إلهي لقد جنّ تمامًا.. تحاول نسرين التحرك، لكن المخدر حقًا قد سلب إرادتها تمامًا..

تمتم بذعر لفكرة مرعبة واتتها للتو: هل.. هل أكر...

- كلا.. بالطبع كلا.. أنا وحدي من أقوم بتلك الأعمال.

قالها في فخر وهو ينفي ويستنكر احتمالية أحد أن ينسب كل تلك العظمة لغيره، وأردف: أكرم لا يعلم شيئًا.

- وأنت قتلت عائلته؟

ابتسم قدري ولم يرد..

- يا إلهي الرحيم.. أكرم مثل أخيك.

- ولهذا لم أقتله.. لهذا عفوت عنه.

صاح قدري بالعبارة في غضب واحمرَّ وجهه قبل أن يتمالك نفسه ويحرك يديه كأنه يهدِّئ المارد بداخله ثم تمتم بشيء ما لنفسه لم تسمعه نسرين.. ظلَّ يتمتم لوهلة وبدا لها أنه يتحاور مع نفسه بصوتين مختلفين..

داخل كل رجل اثنان.. ومن حق كل منهما أن يحيا..

التفت إليها وهدر فجأة فانتفضت هي في رعب، لكنها ظلت صامته..

اقترب منها وقال: لماذا لا تبكين؟ لماذا لا تصرخين؟ لماذا تقاومين خوفك؟..

ثم رفع يديه بشكل مسرحي وأكمل: الرعب.. استمتعي به.. إنه أنقى شعور في العالم.. لقد ارتجف رجال القبيلة وهم يتخيلون المجهول.. وما يحمله لهم.. أنا قد رأيت ما يهابه الآخرون في الظلمات.. ما يزورهم في أحلامهم.. هذا الشعور الذي ينتابك وأنتِ وحيدة في الظلام.. وأنتِ نائمة عندما تشعرين بشيء يجثم فوقك.. لماذا تخافين دخول الكهوف المظلمة والقصور المهجورة؟.. لماذا نهاب الظلام؟.. لأننا نعلم.. جزء بداخلنا يعلم، لقد ورثنا تلك المعرفة من أجدادنا الذين رأوا منذ الآف الأعوام ما الذي يوجد في الظلام.. وارتجفوا هلعًا.. واحتموا جوار النيران في العراء.. انظري إليكم.. في قمة العِلم والعقلانية.. لكنكم تخافون السير وحدكم في الطرق المظلمة والبقاع

المهجورة.. لأنكم تخافون البعبع.. تخافون الشيء.. تخافون شبح الأوبرا.. تخافون القرين..

ثم اقترب منها ولفحت أنفاسه وجهها وهو يضيف: تخافون قوى الظلام.

- تبًا لك!

قالتها نسرين وهي تحاول التماسك..

اعتدل واقفًا وعاد ليتحدث ببرود ولا مبالاة: أريدك أن تعلمي أني لا أحب أكرم فحسب..

نظرت إليه، هل سيقول إنه يحبها أيضًا ويتركها ترحل؟.. الحياة ليست بهذا العطاء.. أضاف: وأنا أحبك أيضًا.. ولذا سوف أقتلك قبل أن أحولك لشمع، لن أحولك حية..

وأخرج خطافًا حديديًا من يده، نظر له في حنان قبل أن يقول بتأثُّر: البعبع كان يقتل بمخالبه أو بالخنجر.. رغم أنه حاول قتل أكرم بالبلطة.. لقد هَرِمَ الرجل وكان بحاجة للرحيل على أي حال رغم كونه فنانًا عبقريًا.. شعرت بالغيرة منه وأنا أرى ما فعله بالبلدة.. لوحته العظيمة الأخيرة.. لذا ساعدتكم في تدميرها.. أنا الفنان الوحيد الآن الذي يجسد الكوابيس والرعب في شكل تماثيل.. لكنه كان يستحق نهاية أفضل من هذه، لقد وفقت عاجزًا وأنا أراقب صراعكما معه.. لا أعلم هل أساعده هو أم أنتما؟.. ثم قررت أن أترك شبح الأوبرا يكمل رحلته القدرية وحده دون تدخُّل وتظاهرت بمساعدتكم.. جزء مني كان يستمتع بوجودي معكم كقدري القديم.. لكنه وقت الجانب الآخر الآن، انظري لهذا الخطاف، وسيلة قتل جديدة.. أستطيع فتح معدتهم

وإفراغها بالكامل به..

كان يتحدث بفخر طفولي كأنه يريها لعبة جديدة.. وأدركت أنه لم يكن ليقتلها دون أن تستيقظ في البداية ليريها ألعابه ويتباهى بها..

اقترب منها.. انحنى.. مسح بيده على شعرها قبل أن يضع يده على وجهها ويقول: سوف أقبّلك الآن.. لطالما أردت فعل هذا.. لن أؤذيكِ.. سوف أفرغ أحشاءك فحسب.. مثلما كان الفراعنة يفعلون قبل التحنيط.. تعتقدين أنك قوية.. أنك لن تبكي.. ولن تصرخي.. أنتِ مخطئة..

تنظر نسرين إلى عيني الغريب أمامها، هذا لم يعد قدري.. هذا شبح الأوبرا.. سوف تنتهي حياتها الآن.. هي تعلم هذا.. قدرها الذي فرَّت منه وهي مراهقة يعود ليقتنصها..

تبحث عن أصدقاء طفولتك بضراوة وتجدهم في النهاية لتصدم ببشاعة ما تحوَّلوا إليه.. بعضهم يكون غير مبالٍ، بعضهم لا يتذكرك، بعضهم يريد منك المصالح.. وبعضهم يصبح سفاحًا..

يقبض قدري بيده على مقبض، ويضربها في معدتها.. تتأوه في ألم.. تصرخ..

أخيرًا تصرخ..

ويسمع أكرم صرختها، لقد تتبع هاتفه لهذا الفناء اللعين المقابل للجبل حيث توجد بناية واحدة مهجورة، كان يبحث في الشقق كالمحموم عندما سمع الصرخة قادمة من أعلى.. كان في الطابق الثالث، يخرج مسرعًا ويستقل السلالم للأعلى وهو يرجوها: اصرخي مرة.. أرجوك أنا بحاجة

لتحديد مكانك..

تنحني نسرين فوق نفسها وهي تحاول مقاومة الألم البشع في معدتها، تضع يدها على الجرح.. وتعض شفتيها كي لا تصرخ، متحدية قدري.. متحدية نفسها.. ومتحدية الحياة بأكملها..

يجذبها قدري من شعرها وهو يهتف كالمجنون: آه هذا الشعر الجميل.. لطالما أردتُ لمسه، لم لا أنتزع فرو رأسك بالخطاف، ونرى إن كنتِ ستتوسلين أم لا؟

أهذا قدري حقًّا، تبًّا لشدة ما يتغير الناس.. تبصق في وجهه فيلكمها.. ثم يجلس فوقها ويرفع الخطاف عاليًا وهو يصيح بعلو صوته منتشيًا: أنا البعبع.

- أنا البعبع

تردَّد صدى الصوت في البناية المقفرة.. لعبة صدى الصوت التي اخترعها أكرم.. هو الأفضل فيها.. يحدِّد أكرم مكانهم تلك المرة، ويعدو.. يركل باب الشقة بقوة جنونية..

***

هو رجل الغاب الآن وقد اقتحم أحدهم كهفه..

***

هناك هذا النوع من الغضب الخام الذي يتملكك..

***

هو يعلم جيدًا أنه سيقتل من أخذ عائلته...

***

يتهشم الباب ويندفع أكرم داخل الشقة، فور أن يحدث هذا، تقاوم نسرين المخدِّر بكل ما تبقى لها من إرادة في تلك اللحظة، وتركل قدري فيما بين ساقيه.. ثم تدفعه للخلف بقوة..

تهمد حركتها تمامًا بعد هذا كأنما تلك هي الصفقة التي عقدتها مع جسدها، سوف أعطيك حركة أخيرة قبل أن نتقاعد..

يختل توازن قدري وينظر لأكرم في عدم فهم.. ثم يتذكر الهاتف.. ويستوعب..

ولثوانٍ ينظر الاثنان لبعضهما البعض..

ولثوانٍ يتذكر كل منهما لقائهما الأول في الفصل..

هروبهما من المتنمرين..

عبورهما لسور لمنطقة الألعاب..

مشاهدة الأفلام سويًا..

ضحكاتهما سويًا..

ثم يلتحم الاثنان..

تراقب نسرين صراعهما وهي غير قادرة على الحركة، تحاول وقف النزيف من معدتها فحسب..

يلكم قدري أكرم..

يركله الأخير..

يضع قدري يده على ذراع أكرم المصاب ويصرخ الأخير..

وللحظة رأتهما نسرين في صورتهما الطفولية؛ طفلان في العاشرة من العمر يتشاجران كنوع من المزاح السخيف..

شعرت بألمٍ في صدرها لما تشاهده..

يلكم قدري أكرم، وهو يضغط على كتفه، ثم يرفع الخطاف عاليًا.. يسقط أكرم أرضًا.. وللحظة يتجمد الخطاف في يد قدري.. وتتسع عيناه، ثم هوى قدري بالخطاف على وجه أكرم الذي قفز للخلف وركل قدري، ثم قفز ليلتحم به ويلوي ذراعه كما اعتاد أن يفعل دومًا كلما أراد خطف شيء في يد صديقه، وكعادته لم يتحمل قدري أن يلوي صديقه يده، هو دومًا يعرف نقاط ضعفه، يسقط الخطاف من يده ويلتقطه أكرم في ثوانٍ قبل أن يلامس الأرض ويغمده بالكامل في عنق قدري..

يمسك قدري بالخطاف ويتلوى ألمًا، دماؤه تقفز يمينًا ويسارًا، تخور قواه ويسقط أرضًا، يتلوى ويبدو أنه يحاول أن يقول شيئًا، يقترب منه أكرم، يبصق قدري دمًا ويقول: ت..ت با.. ل..ك..

ويمد يده لأعلى، رغمًا عنه يمسك أكرم يده ويرد: تبًا لك أنت أيضًا.. تجحظ عينا قدري وتهمد حركته..

يعتدل أكرم واقفًا وهو ينظر للجثة، ثم يهرع لنسرين ويحتضنها..

- لا ترحلي أنتِ أيضًا.. أرجوك.. لا ترحلي.. الجميع قد رحلوا.. أنا بحاجة إليك..

ثم يحتضنها بقوة..

تسعل نسرين وهي تحاول الاحتفاظ بوعيها.. يزيد أكرم من عناقه لها ويبكي، يترك نفسه ليجهش بالبكاء أخيرًا.. ينظر لجسد قدري.. ويتذكر تمثال زوجته وابنه.. ويطلق العنان لصيحة عاتية تتخللها ذكرياته كلها وهي تمر أمام عينيه بشكل جنوني..

ترفع نسرين يدها برفق وهي تجاهد كي تفتح عينيها، وتضع يدها على وجه أكرم.. جوارهما يرقد قدري غارقًا في دمائه..

تلك كانت المرة الأخيرة التي اجتمع فيها الفرسان الثلاثة سويًا..

***

بعد ثلاثة أشهر

- ربما عليهم إنشاء جمعية المحاربين القدامى فقط من أجلنا.. انظر لكل تلك الإصابات، الندبة لا تزال على يدي من محاولة خروجي من التابوت، والآن الجرح اللعين الذي قرّر أن يلتئم أخيرًا في معدتي.. وأنت بكتفك هذا..

ظلَّ أكرم صامتًا، وحافظت نسرين على ابتسامتها التي جاهدت من أجلها..

نظرت إليه طويلًا، لقد ظلَّا سويًا، ظلَّا معًا كل يوم من أيام التعافي الشهور السابقة، وقد تعافيا جسديًا، لكنها تعلم أن ما مرًا به - خصوصًا أكرم - سيسعى لترك ندباته على أرواحهما للأبد..

قالت له فجأة: دعك من الهراء والتظاهر.. أنا وأنت قد فقدنا الكثير من الأشياء.. تألمنا كثيرًا.. مررنا بأشياء كفيلة بإتلاف عقل أي أحد.. ولو ظللت

صامتًا تفكر فيما فعله قد...

ثم صمتت بغتة، لم يقوَ أحدهم على ذِكر اسم قدري منذ ليلة موته..

قال أكرم: قدري.. اسمه كان قدري، لقد خدعني وأخذ زوجتي وابني.. أخي وصديقي الذي وثقت به أخذهم مني.. لا أعلم لماذا لا نستطيع قول اسمه؟ لقد ظللنا أنا وهو لأعوامٍ غير قادرين على ذِكر اسمك عندما كنا نعتقد أنك رحلتِ عن عالمنا.. أعني.. أنتِ حقًّا رحلتِ عن عالمنا لكنك تعلمين ما أقصده.. لا أعلم.. لا أعلم.. لماذا فعل هو ما فعله؟ حتى اللحظة الأخيرة وأنا أشعر أن جزءًا ما بداخله كان لا يزال قدري الذي اعتدته.. أنا بحاجة لمنطق.. بحاجة كي أفهم.. هل كان يحبك ويحبني.. لماذا فعل بنا ما فعله إذًا؟

- ولماذا وقعت كل تلك الأهوال في الثمانينيات؟.. قدري كان يحبنا بطريقته يا أكرم.. لكنه كان.. تبًا.. كان مختلفًا.. صديقنا كان قاتلًا.. مثل الرجل الآخر الذي كان يحيا في قصر سليمان.. زوجة سليمان نفسها، أتعتقد أنها لم تفكر مثلنا بينما زوجها يقتلها؟ نحن ضحايا.. وهذا لا يعني أننا ضعفاء.. لقد نجونا..

- لكني فشلت في إنقاذهما.

- لم يكن هناك شيء بإمكانك فعله، لا تلُم نفسك أبدًا لأنك تعلم أن ما حدثَ ليس ذنبك، وإلا فهو ذنب زوجة سليمان أنه تركته يقتلها..

أمسكت نسرين بيد أكرم وأضافت: أنت خسرت أشياء لا يتحمل أحدٌ خسارتها.. لكنك ستنجو، ولن تكون وحدك.. سنقاتل سويًّا.. لأننا أقوى ونحن فريق.. وهذا الذي مكَّننا من النجاة حتى الآن..

ثم تنهدت قبل أن تضيف: لم ننجُ ثلاثتنا مما حدثَ، لقد فقدنا قدري ونحن صغار.. هو لم ينجُ قَطّ مما حدث.. لقد هزمنا الشر.. وهذا جاء بثمن...

- لكني لم أرد محاربة الشر.

- نحن لا نختار قدرَنا يا صديقي.

ثم تنهدت نسرين وأضافت: لم أتحدث مع أحدٍ أبدًا عن الليالي التي قضيتها في التابوت وأنا مدفونة حية، كذا بدا الأمر إليّ، ليس ليلة واحدة بل ليالٍ عدة.. ظللت أشعر بالاختناق لشهور بعدها، وأحيانًا كنت أجاهد كي أتنفس.. هربت من كل شيء، وخضت حياة جديدة، لكن نوبات الاختناق تلك كانت تذكارًا لما كان.. مرت الأعوام.. لكني ظللت كل حين وآخر أشعر بالاختناق إياه.. حتى عندما كنت أنسى حقًّا ما حدث وأنغمس في تفاصيل حياتي الجديدة، كانت تنتابني نوبة الاختناق إبان النوم مثلًا.. أتعلم بما شعرت عندما قتلناه أخيرًا؟.. البعبع؟.. بالحرية، بأني قادرة على التنفس.. ليس لأنه مات، بل لأني واجهته.. ما مررنا به أمرٌ جنوني يا صديقي.. ليس عليك مواجهته أو التحرر منه الآن.. كل ما عليك فعله هو التنفُّس فحسب.. دون أن تختنق.. فقط خذ نفسًا عميقًا يا صاح..

هز أكرم رأسه، عانقته نسرين برفقٍ وأردفت: ويومًا ما.. ربما ليس غدًا.. ربما ليس بعد عامٍ.. ولكن يومًا ما.. سوف تضحك مرة أخرى.. وحينئذٍ سوف أذكّرك بما أريد قوله الآن..

- ألا وهو...

- أنت تمتلك أنف بينوكيو.

ابتسم أكرم، وكذا فعلت نسرين..

مرت جوارهما طفلة صغيرة تضع سماعات الأذن وتنظر بتركيز لهاتفها الخلوي، نظر إليها الاثنان قبل أن تتلاقى أعينهما بتلقائية وهما يتذكران مسيرتهما سويًا وهما أطفال.. قبل أن تقول نسرين: لقد تغيرّت الكثير من الأشياء، لكننا لا زلنا هنا.. لقد نجونا، ولن نتغير..

نظر أكرم للطفلة مرة أخرى.. ثم أخذ نفسًا عميقًا بعدها..

***

النهاية

Telegram:@mbooks90